

مشروع النشر المشترك



جان جاك روسو

محاولة في أصل اللغات

تعريب: محمد محبوب

تقديم: د. عبد السلام المسدي

مشروع النشر المشترك



الدار القومية للنشر

دار الشؤون الثقافية العامة (أفاق عربية) - بغداد

جهان مہیا کی روسو

مُحَاوَلَتُ فِي إِصْلَاحِ اللُّغَاتِ

تعريب
محمد محبوب

تقديم
الدكتور عبد السلام المصري

تقديم

بقلم : الدكتور عبد السلام المحي

تقديم

بقلم : الدكتور عبد السلام المسدي

لو لم يكن من خصال هذا العمل الذي أقدم عليه زميلنا وصديقنا الأستاذ محمد محبوب إلا امتثاله لوعي الفيلسوف بأن الترجمة مغامرة فكرية لا ينفك صاحبها يصارع بين اختيارين « أحلاهما مر » : إما الوفية وإما الحسنة ، لكان حرياً بتقدير كل قارئ ، وهو بتقدير عالم اللسان لأخرى .

ولكن مهمة المترجم لم تكن هينة فقد حرص على أن يكون وفياً لروح النصّ في مناخه التاريخي وعلى أن يلائم بينه وبين روح القارئ المعاصر في حسه اللغوي ، ثم كآني به قد أخذ نفسه — في البحث عن الحسنة — بصياغة فيها من السبك والتدقيق ما ينزّلها منزلة الابداع ، فوفق عند جل مواطن الاشكال في أن ينسبنا أننا نقرأ خطاباً مترجماً ، وهذا عيار كل ترجمة .

ولكن لم اتجه الأستاذ محمد محبوب صوب جان جاك روسو في قضية قد لا تكون خير ما يترجم عن هذه العبقرية التي انبرت خلال القرن الثامن عشر — عصر الأنوار — تتساءل عن مآل التقدم العلمي وتحذر من تراكم الفروقات متقية شر مجتمع تتحول فيه المؤسسات الى أبنية متسلطة

لقد ندد روسو بكل حضارة تسلب الانسان أصالة طبعه فنادى بأعلى صوته أن الابتعاد عن الطبيعة الاولى منذر بفساد المجتمع البشري . أفلهذا كتب محاولته « في أصل اللغات » ؟

لقد كان الانسان مركز النظر في كل تأملات روسو حتى نزله منزلة المدار في كل فلسفة كونية، وهذا ما أنطق الفيلسوف الألماني « كانت » بالقول : « إن منزلة روسو في حقل الأخلاق كمنزلة نيوتن في حقل العلم » .

فان يكن روسو قد كتب ما كتب حول اللغات من هذا المنطلق، وإن يكن المترجم قد ترجم له ما كتب من ذات المنطلق فنعم ما يصنع الأستاذ محمد محبوب إذ يأخذنا في رفقته الى عالم روسو وقد مضى قرنان لم يتبدل فيهما ضرب من المعارف الانسانية كبديل علوم اللغة ولا سيما منذ الثورة المنهجية التي تملكّت المعرفة اللسانية الحديثة . ولكن اللسانيات نفسها قد أصبحت تجري حركة استبطانية على تاريخ المعارف اللغوية ، ذلك أن الفكر اللساني الغربي قد اتجه — فيما اتجه إليه — الى اعادة قراءة تراثه اللاتيني نافذا من خلاله الى التراث اليوناني أحيانا وهو بمثابة البحث في خبايا التاريخ اللغوي هدف أصحابه منه ادراك أسرار العلم اللساني الحديث من جهة ، وإبراز خصائص تفكير الانسان في أدواته الكلامية عبر الحقب التاريخية من جهة أخرى .

فأن نقرأ اليوم ما قاله روسو حول الظواهر اللغوية متلمسين وجهامة الفحص ودقة المعرفة فذاك مسلك إن لم يوجب لنا ظنا فلا أقل من أن يثير فينا الاشفاق ، أما أن نقرأ محاولة روسو في أصل اللغات لنعرف كيف كان كبير عصر الأنوار « يفكر » في الأداة التي بها « يفكر » ومن ثمة كيف كان « يفكر » مطلقا ، فذاك عين الفائدة وثمرتها القصوى ، وفي هذا المثوى يكمن فضل الأستاذ محمد محبوب فيما أقدم عليه .

ولكن لا يذهبن الظن إلى أن روسو في حديثه عن خصائص اللغات

قد جانب الحقيقة العلمية في كل ما يقول ، بل لعله لاطلاقه الخاطرة على رسلها قد أمسك بزمام بعض الخفائق فصورها على طريقته في التقدير فجاءت كالومضات الحصيفة ، فانظر اليه وهو يوازي بين الكلام في تحققة الادائي واللغة في وجودها الخطي : « إن الكتابة التي يبدو من مهامها تثبيت اللغة هي عينها التي تغيرها ، فهي لا تغير كلماتها بل عبقريتها ، إنما تعوض التعبير بالدقة فالمرء يؤدي مشاعره عندما يتكلم ، وأفكاره عندما يكتب ، فهو عند الكتابة ملزم بأن يحمل كل الالفاظ على معناها العام ولكن الذي يتكلم ينوع من الدلالات بواسطة النبرات ويعينها مثلما يحلو له (...) فإنما يكتب المرء التصويتات لا النغم ، غير أن النغم والنبرات ومختلف انعطافات الصوت في اللغة ذات البر هي التي تمنح التعبير أقصى ما له من الطاقة وهي التي تقدر على تحويل الجملة من جملة شائعة الاستعمال الى جملة لا تستقيم في غير الموضع الذي هي فيه .

ثم يختم استطراده مقررا في جزم : « إذا المرء أضحي كل شيء يقول كما لو كان يكتبه لم يغد الا قارنا يتكلم » . وهذه من نفثات فكر ثاقب أعانته ناصية اللغة عليه ولم يزد رونق الترجمة الا تألقا .

وتتعدد نفثات الفكر عند روسو فإذا بخاطرة توقظ فينا — نحن أبناء الأمة العربية — بعض ما توقظ : « إن الأمة بقدر ما تقرأ وتتعلم تدوب لهجاتها » . وأي خاطرة أكثر بداهة عندنا من هذه ؟ ولكن كم من صراع يتحتم علينا خوضه أحيانا في سبيل إثبات ما هو من بدبيات الأمور !

ويبقى المشكل الذي كتب من أجله روسو هذه الخواطر : مشكل نشأة اللغات . فما شأنه ؟

إنه لا يكاد يوجد تفكير بشري تناول قضايا الظاهرة اللغوية من قريب أو بعيد إلا وقد أثار مشكلة أصل النشأة اللغوية حتى إن الخوض في هذا المشكل قد مثل القاطع المشترك بين مدارس التفكير النظري عبر تسلسلها التاريخي ، وهو في نفس الوقت قاسم مشترك

بين مجالات هذا التفكير نفسه إذ تجاذبه كل من الفلاسفة وأعلام الدين
وبالباشرين في تاريخ الانسان وأصل نشأة العالم الذي يعيش فيه .

وأول ما نبادر إليه في هذا المضممار هو أن القضية وإن اختصت
باللغة فإنها تكشف معضلة منهجية تنزل خارج حوزة المسائل اللغوية
بل إنها لا تطرح البتة عقدة فكرية مبدئية ، ذلك أن أصل نشأة اللغة
من حيث هي قضية جوهرية ترجعنا مباشرة إلى مسألة أخرى تقوم
مقام المولّد الأم وهي أصل نشأة الانسان ، وكثير من المفكرين
المعاصرين — ولا سيما من رواد الفكر الغربي — مازالوا يغفلون عن
هذا الارتباط العضوي .

والحقيقة أن العلم ما لم يقدم لنا فرضية راجحة في أصل نشأة
الانسان فلن يتسنى بسط احتمال مرجح في أصل نشأة اللغة .
ويبقى موقفنا نحن — اللسانيين — من هذه القضية .

لقد أطرّد في العرف البشري — وروسو على نهجه — أن يتناول
الموضوع عن طريق الاستقراء الافتراضي القائم على الاحتمالات
التقديرية ، وكلها مقاربات لا تتناقض في ذاتها مع البحث عن الحقيقة
العلمية ، ولكننا اليوم نمسك في اللسانيات بحقيقة أخرى هي وحدها
كفيلة بإلغاء القسط الأوفى من هذه الافتراضات التي قدمها المفكرون
منذ زمن بعيد وما زال اخرون يقدمونها : ذلك أن الثابت اليوم قطعيا
— بفضل البحوث اللسانية متضافرة مع الكشوف الانتروبولوجية
والبيولوجية والعصية — هو أن الفرد الادمي إذا أعوزته الفرصة
لاكتساب لغة ما في بيئة الأمومة خلال السنوات الخمس الاولى تعذر
عليه بعد ذلك ان يكتسب القدرة على الكلام اطلاقا .

فكل نظرية متصلة بأصل نشأة اللغات البشرية تتضمن افتراض
أن الانسان وجد كائنا حيا غير ناطق ثم أهتمته الطبيعة أو الحاجة أو
أي قوة خارجية أن يتكلم باللغة فتكلم بها فإنما هي نظرية مدحوضة
منقضة . لذلك لم يكن بوسع عالم اللسان الا أحد أمرين : إما أن

« يعلق » الموضوع مرجحاً إياه ريثما يقدم له العلم نظرية جازمة في أصل نشأة الانسان ، وإما أن يتكل على مقولة أخرى غير مقولة العلم فيتبناها واعياً أنه قد تخلى عن قميص العلم ساعتها .

د . عبد السلام السدي



إلى
يزيد
رابعُ أعياده،
وأعيادها
وأعيادى

ديسمبر 1984

جان هالك روسو حياته . أعماله

1712 — ميلاد ج . ج . روسو ، وهو الابن الثاني لاسحاق روسو ، الساعاتي ، ولسوزان برنار ، وذلك بمدينة جنيف .
وفاة والدته في 7 جويلية من السنة نفسها ، وتعهد سوزان روسو بتربيته .

1722 — مغادرة اسحاق روسو جنيف ، واقامة ج . ج . لدى السيد لامبارسي .

1724—5 — عودة ج . ج . إلى جنيف ، حيث يتدرّب لدى عدل ثم لدى نقاش .

1728 — لدى عودته من نزهة ، يفاجأ ج . ج . روسو بأن تقفل دونه أبواب المدينة قبل موعد العادي : « ... فأقسمت في مكاني بأن لا أعود أبدا إلى عرقي ... » (١) .

* ج . ج . روسو ، الاعترافات ، السفر الأول ، القسم الأول ، الكتاب الأول ، فلمازيون ، باريس ، بدون تاريخ ، ص : 43 .

- يلتقي روسو ، في 21 مارس من السنة عينها ، بالسيدة
وارانس ب آناسي . ثم يتجه إلى تورين حيث يعتنق الكاثوليكية .
- 1729 — 1739 — عودة روسو إلى السيدة وارانس بآناسي . تنقلات عدة
وتقلبات بين مهن وفنون مختلفة وخاصة منها الموسيقى
حيث اشتغل بتدريسها . استقرار روسو بشارمات
(1737) دراسة عصامية (1739) .
- 1742 — القطيعة النهائية مع السيدة وارانس ، والتوجه إلى باريس .
- 1742 — 1743 — الالتقاء بديدرو .
- مشروع متعلق باختراع علامات موسيقية جديدة .
- روسو كاتباً لدى سفير فرنسا بالبندقية .
- صدور مقال له في الموسيقى الحديثة .
- 1744 — روسو في باريس من جديد.
- 1745 — دخول روسو في علاقة مع تيريز لوفاستور .
- 1746 — 1747 — ولادة ابن روسو الأول ، حيث يودع مقرّ « الأطفال
الضائعين » .
- 1749 — مشاركة روسو في الموسوعة ، بمقالات عن الموسيقى .
- 1750 — أكاديمية ديجون تتّوج مقال روسو « في العلوم والفنون » .
- 1753 — « رسالة في الموسيقى الفرنسية » ، وقد كان من صداها لدى
القراء أن شفق روسو — صورته .
- 1754 — العودة إلى جنيف واستعادة روسو حقوقه كمواطن من جنيف .
- 1755 — مقال في أصول اللامساواة ما بين الناس .
- 1757 — جدل مع الموسوعيين ، وخصومة مع ديدرو .

- 1761 — مخطوط العقد الاجتماعي .
- 1762 — اميل ، ويقابل هذا الكتاب بمنع البرلمان له ، فيهرب روسو ، ويحرق كتاب اميل وكتاب العقد الاجتماعي .
- 1766 — روسو في انقلترا صحبة دافيد هيوم . ثم يختصمان .
- 1768 — زواج روسو من تيريز لوفاسور .
- 1770 — قراءة علنية لكتاب الاعترافات ، في باريس .
- 1775 — روسو حاكما على جان جاك .
- 1776 — الأحلام .
- 1778 — وفاة ج . ج . روسو بـ « ارمنيونفيل » (2 جويلية على الساعة الحادية عشرة صباحا) .

« Tâchons de suivre dans nos recherches l'ordre même de la nature. J'entre dans une longue digression sur un sujet si rebattu qu'il en est trivial, mais auquel il faut toujours revenir, malgré qu'on en ait, pour trouver l'origine des institutions humaines »

« فلنعمل على أن نساير في بحوثنا نظام الطبيعة ذاته . وإني أقدم
هنا على استطراد طويل في موضوع قد أكل عليه الدهر وشرب
حتى صار مبتذلاً . ومع ذلك ، فلا بد من الرجوع إليه دائماً ،
حتى نقف على أصل المؤسسات الإنسانية . »

ج . ج روسو
محاولة في أصل اللغات
الفصل الثامن

تصدير المترجم

ما الذي يمكننا قوله في حدود التصدير الضيقة عن المقاربة الروسية لأصل اللغات في المحاولة التي نقترح اليوم تعريها لها ؟ سنقتصر على نقطتين اثنتين ، لعلهما تكونان مدخلا يسرولوج الى نص روسو أو يخفف على الأقل مما يقارن الالتقاء الأول به من صدمة مضاعفة : التباس غرضه وغربة عبارته . فنسأل عن موضوع المحاولة وعن وحدة قصدها العام وذلك سعيا الى ادراك مدى تأثير « التداخل المشكلي » على العلاقة بين مسألة « سلطان الموسيقى على القلوب » ومسألة « أصل اللغات » ، ثم ادراك مدى تأثير التداخل المشكلي بين هاتين المسألتين باعتبارهما مسألتين تقنيتين، أو باعتبارهما مسألتين مختصتين، على الأقل، من جهة، والمسألة العامة أو المسألة الفلسفية لاصل المجتمعات، ولمدى ارتباط بنياتها بلغتها .

اذلك أنه تأتلف في محاولة روسو في أصل اللغات أوجه عدة وأبعاد مختلفة من فكره : فهو الفيلسوف ، متسائلا عن وضع اللغة وأصلها ، وعن بنية المجتمعات وطبيعتها ، وهو كذلك الفنان المخاضل في الرسم التصويري والحكاية الموسيقية من حيث اثر جمالها في القلوب : فكيف تتوحد هذه المقاصد إذن ، بحيث تؤدي إلى طرح مشكل أصل اللغات في علاقة حيمة بأصل المجتمعات ، وتؤدي إلى تصور التعبير اللغوي في علاقة حيمة بالتعبير الفني موسيقي ورسمي ؟

بين البحث عن وسائل تبليغ أفكارنا ، كتخطيط حدود العزلة وخروج من عدم الحاجة ، والطفان على المجال الخاص الذي تتركه الحياة المدنية للآخر ، من خلال الاقتاع كخلق للحاجة ، تمتد المحاولة في أصل اللغات ، حاكية بذلك قصة المجتمع وعارضة من مشاهد تكوّنه ما يكاد يلهيك عن اللغات وأصلها . فهلاً تكون إذن محاولة في أصل المجتمعات من خلال المنشور اللغوي ؟ ولكن مثل هذا المسمى يستلزم أن يكون المنشور اللغوي قد ناله بعد من التحليل والتركيب ما حصل به على مشروعته المرجعية التي يقدر بها على أن يمثل منظورا أو منظارا يمكن تسليطه على الموضوعات المختلفة . ولكن شيئا من كل ذلك لم يحصل بعد .

فهل يكون الكتاب إذن محاولة في النظر إلى أصل اللغات من خلال منشور أصل المجتمعات ، مثل هذا المسمى يقتضي أن يكون المنشور المجتمعي قد ناله ما لم يتل المنشور اللغوي ، بحيث أصبح له من التقاليد ما يؤهله لكي يكون منظارا يسلط على الظاهرة اللغوية ، منشئها وتاريخها وعلاقاتها بغيرها من الظواهر .

وإنّ المرء لا ميل إلى الانخراط في صفّ هذا الافتراض الثاني ، إذ تؤكد عدة البيانات ، لعل أهمها ذاك الذي يعتمد به روسو إلى الإجابة عن السؤال المطبق بأصل المؤسسات الانسانية : « وائي لمقدم هنا على استطراد طويل ، في موضوع قد أكل عليه الدهر وشرب حتى صار مبتذلا ؛ ومع ذلك فلا بدّ من الرجوع إليه دائما ، حتى نقف على أصل المؤسسات الانسانية » .

يتحدّد هذا الموضوع إذن على أنه المرجع والشاهد والحكم ، في كل ما يتعلّق بالمؤسسات الانسانية عامة ، وبالمؤسسة اللغوية على وجه الخصوص . ولكنّ الاتصال بهذا المرجع والعودة إليه لا تتمّ ضمن المحاولة إلا على وجه الاستطراد . ولعل الشأن في الاستطراد أنّ ما له من الشرعية لا يفوق من بعض الوجوه ما للشجون التي للحديث . فان كان ذلك ، فان المرور بمنعطف « المجتمعات الأولى » لا يكون إلا اصطناعا لا خير فيه . ولكنّ الأمر على خلاف ذلك . فلا ابتدال الموضوع ولا طول الاستطراد بمغنيين لنا من الانصراف إلى أصل المجتمعات . بل يظلّ الوقوف على أصل المؤسسات الانسانية بما لها المؤسسة اللغوية مرهونا بالتذكير بمعطيات قد « أكل عليها الدهر وشرب » .

بذلك تبني المحاولة في أصل اللغات قولاً يتضمن في كل أجزائه إشارة الى منجز ، ويتدرّج شوقاً إلى أصل الأصل ، من أجل المرور به . فيكون الفصلان التاسع والعاشر

أولي الفصول وآخرها ، ونقطة انطلاقها ومآلها ، متوسطين بذلك مسار الفصول العشرين ، لكنهما من كل واحد منها المدخل والمخرج . ولا يكون الاستطراد ساعتها شجن حديث قد كان يمكن الاقتصاد فيه ، بل قصد شوق تنشّد إليه الرّحال :

فأولى المشاهد مشهد الشوق ومشهد الحاجة ، إذ يطلّ منهما المتوحد على الغير اطلالة الذي « تملكه الرّعب » فحاجته نفى الآخر ، وهمّه الابتعاد عنه ، ولكنّ حدّه الطّبيعة . لا تتولّد اللغات إذن من الحاجات الطّبيعية ، « فمن غير المعقول أن يكون مما يفرّق بينهم ما يجمعهم » .

وثاني المشاهد مشهد الشوق الى الآخر، حبا أو كرها، شفقة أو غضبا. فحاجة الانسان هي الآخر وهمّه الفعل فيه . وما يغير هذا الوجه تتولّد اللغات : « ان كلّ الأهواء تقرب بين الناس الذين تجبرهم ضرورة البحث عن العيش على التباعد . فلا الجوع ولا العطش انتزعا منهم أول التصويتات ، بل الحب والكراهة ، والشفقة والغضب . ان الثّار لا تفلت من أيدينا ، فيمكننا ان نتغذى بها من غير كلام ، كما أننا في صمت نطارده الفريسة التي نفتاتها . ولكن ، إذا ما أردنا التأثير في قلب شاب ، أو صدّ معتد أثيم ، فان الطّبيعة قلمي علينا نبرات وصرخات وأثبات » .

تبدو اجتماعية الانسان إذن محدّدة لنطقه باللغة . ولكن هذه الاجتماعية لا تحقق من كل شروط اللغة الا احدها ، بل تقتضي اللغة أن يصاحب اجتماع الناس تولّد للأهواء والعواطف . ذلك أنّ الحاجات الطّبيعية ، إذا ما افترضنا أنها قادرة على تجميع الناس ، وهو ما ليس دائما مؤكّدا ، لا تولّد من اللغات الا لغة الاشارة . أما لغة الصوت فلا تتولد الا متى فاض القلب بالعواطف . لذلك يحكي تولّد الكلام تولّد الهوى ، ولذلك أيضا يحكي تولّد الكلام تولّد الهوى : فإذا تاريخ اللغات تاريخ تضالّ حيويتها وتناقض شاعريتها ، وإذا انجاز الاتحاد الذي كان فيها قد أمسى حقيقة حادة ، وإذا الفكر الحالم قد أضحي فكرا مستتيرا يحكم على أحلامه الأولى بأنها أخطاؤه الأولى .

ولعل هذا التبدّل قد بلغ قراره في الكتابة ، إذ تقلّب على اللغات عبقريتها ، فلا يبقى فيها من طاقة التعبير شيء ، بل يتحول كل ذلك الى وضوح في المعنى ودقة في الأفكار . هكذا ينتقل انحاء نبوة التّطرق الى صمم نبوة الرّسم وبكمها ، فما عادت تحمل من حياة اللغة الا ذكرها ، ولكنها ذكرى ميتة :

« إذا المرء أضحي كلّ شيء يقوله كما لو كان يكتبه ، لم يغد إلا قارئا يتكلّم » .

هكذا آلت نغمية اللغات الحديثة إلى علامات نغمية منقطعة عن الواقع النغمي ، وهو ما يدل على أنها قد أضحت لغات مكتوبة ، بل وأنها حتى في نطقها مكتوبة ، « فلو تكلم يهود اليوم بالعبرية لما فهمهم أجدادهم » .

ولكن تتبع أثر هذا الضياع التاريخي للغة لا يمكن ان يغني عن التساؤل عن أصلها . بل لعل ذلك التساؤل هو وحده الكفيل بأن يهديننا الى فهم آلية هذا الضياع . فالفصلان التاسع والعاشر ، يتوليان تحديد التكون الطبيعي للغات الشمالية والجنوبية ، وهو ما تعلن عنه نهاية الفصل الثامن عندما تؤكد : « فلنعمل على أن نسائر في بحوثنا نظام الطبيعة ذاته! » لذلك تحكي الفصول الثمانية الأولى قصة تباعد اللغة عن الطبيعة . وذلك هو بالذات ما قصدنا . عند بداية هذا التصدير إذ قدمنا ان استطراد الفصلين التاسع والعاشر « ليس شجن حديث قد كان يمكن الاقتصاد فيه ، بل قصد شوق تنشئ إليه الرجال » . ذلك أن العود إلى أصل تكون اللغات شمالا وجنوبا قد ورد في المحاولة في وقت قد بلغ فيه وصف ضياع اللغة اخر ما آلت إليه هذه الظاهرة ، فهل من الصدفة أن ينتهي الفصل السابع بالتلويح إلى أبرد اللغات كلها ؟ ان العود إلى الأصل الغابر قد تم في زمن سبجل فيه الحاضر من الحضور ما لم يعد معه الماضي إلا أشلاء من الذكريات . فلعل كثافة هذا الغياب (الذي للماضي) قد شحذت من الشوق ما اشتد به عزما على الوجهة الأولى . فإذا « القول في الأصل » ينظم ساعة الأصل بعيد عن الذكر ، عظم ما كان دفيننا عمل الشوق !

ولكن ما يصوره القسم الثاني من الكتاب (الفصول من 12 إلى 19) هو تباعد الموسيقى عن الطبيعة . فنسأل : هل يتعلق الأمر بمجرد سرد لحكاية الموسيقى ؟ وما مدى العلاقة بين هذه الحكاية وحكاية ضياع اللغة ؟

« ان القصص الأولى والخطب الأولى والتواميس الأولى قد كانت شعرا . فلقد وجد الشعر قبل النثر . ذلك ما حدث فعلا لأنّ الأهواء تكلمت قبل العقل . وكذلك كان شأن الموسيقى . فلم يكن ثمة في البداية من موسيقى إلا التغم ومن التغم غير ما يحدثه الكلام من تنوع الصوت » . لذا كان القول في الموسيقى (اي في التغم وفي المحاكاة الموسيقية) قد ورد في عنوان المحاولة كمجرد موضوع من موضوعاتها : (محاولة في أصل اللغات ، وفيها يتحدث [أيضا] عن التغم وعن المحاكاة الموسيقية) ، فإن الفصل الثاني عشر يسوّي بينه وبين القول في اللغات ، من خلال المماهة بين كيفية انحطاطهما . فإذا الموسيقى اللغة واللغة الموسيقى ! « هل كان من العجب أن أول التحاة قد أخضعوا

صناعتهم إلى الموسيقى ، وأنهم كانوا في الوقت نفسه أساتذة في كلتا الصناعتين ؟ إن لغة ليست لها إلا المقاطع والتصويتات لا تملك إذن إلا نصف ثروتها . صحيح أنها تؤدي أفكارا ولكنها اذا ما أرادت أن تؤدي مشاعر أو صورًا احتاجت مع ذلك إلى إيقاع وأصوات أي إلى نغم . »

هكذا تتوالى مشاهد قصة الموسيقى عارضة تبدد ثروتها من خلال انقطاعها عن التصوير والمحاكاة وانشغالها بالتصاوت والاصطناع . وذلك هو معنى الجدل العنيد بين روسو ورامو حول « سلطان الموسيقى على القلوب » ، أنغمي هو أم تصاوتي . وراء ذلك الجدل جدلٌ في الطبيعة والاصطناع ، وبين حيوية العواطف وتلقائيتها من جهة وبرودتها القاتلة من جهة أخرى .

ولكن الأهم من كل ذلك ، هو أن وراء قصة الاصل والضياع التي هي قصة اللغة والموسيقى ، ثمة قصة « الانسان » و« الجنة » . فهلاً وجب ساعتها أن تكون المحاولة عرضاً لقصة الانسان من خلال المنشور اللغوي أي من خلال منشور التعبير بوجوهه التصويرية المختلفة ، التصوير اللغوي ، والتصوير الموسيقي ، والتصوير بالرسم ، إلخ . ؟

لا نريد أن نختم هذا التصدير السريع ، قبل أن نذكر بأن كل ترجمة انما هي محاولة لانطاق النص في لغة غير لغته ، ولكن انطلاقاً من شيء يظل شيئه هو لا شيئاً آخر . ولذلك فهي عمل لا تنفك تتنازعه مقتضيات الامانة ، وذلك لا للحفاظ على المعنى فحسب ، فذلك أضعف الايمان ، ولكن للحفاظ كذلك على « المناخ » الأسلوبي وعلى « العوارض » التعبيرية التي قد لا يكون لها كبير أثر في المعنى المباشر ، ولكن ما أعظم ما يكون أثرها وما أعظم ما تكون مناصرتها لمجهودات التفاضل إلى بنية النص العميقة . لذلك ، فلقد يعمد البعض ممن ألفوا التسرع في الفتوى إلى أن يعيب على هذا النص لجوءه الى تعابير قد لا تتماشى مع خفة عبارة هذا العصر . ولكن ، « على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... » فلقد كان علينا أن نختار بين أن نغالي في اخضاع روسو الى مقتضيات عصرنا أو أن لا نغالي .

ومهما يكن من أمر ، فإنا لا نشك قط ، في أن هذا العمل مُلاقٍ من لدن قرائه عينا وسطاً بين عين الرضى وعين السخط؛ فحسبه أن يحظى من تلك العين بما قد يصلح من شأنه ان قدّر له أن يتدارك أمره ، أو من شأن صاحبه ان هو أقدم على مغامرة أخرى .

محمد محبوب

جان هالك روسو

محاولة في أصل اللغات

(وفيها يتحدّث عن التّغم وعن المحاكاة الموسيقية)

الفصل الاول

في مختلف وسائل تبليغ أفكارنا

يُميز الكلام الانسان عن الحيوانات. وتُميّز اللّغة الأمم بعضها عن بعض، فلا تعرف نسبة انسان ما إلّا بعد أن يتكلّم . ويحمل الاستعمال والحاجة كلّ امرئ على أن يتعلّم لغة بلاده . ولكن ما الذي يجعل تلك اللّغة هي لغة بلاده لا لغة بلاد أخرى ؟ إنّ الاجابة عن ذلك تقتضي الرّجوع الى سبب ما ، يرتبط بالمكان ، ويكون سابقا على العادات عينا : فالكلام بما هو أوّل مؤسّسة اجتماعيّة ، إنّما يدين بشكله الى أسباب طبيعيّة .

فما ان تعرّف بعضهم على بعض كأننا حاسّا ومفكّرا وشبيها به حتّى دفعه الشّوق وحاجة ابلاغه مشاعره وأفكاره الى البحث عن وسائل ذلك الابلاغ . وهذه الوسائل لا تستمدّ من غير الحواس، اذ هي الالات الوحيدة التي يمكن بها للمرء أن يؤثّر في غيره. وها هي العلامات الحسية تجعل اذن للتعبير عن الفكر. ان الذين اخترعوا اللّغة لم يستخدموا هذا البرهان. ولكن حدسهم أوحى لهم بنتيجته .

ان عامة الوسائل التي نقدر بها على التأثير في حواس الغير تنحصر في اثنتين هما الحركة والصوت ، ويكون فعل الحركة اما مباشرا باللمس أو غير مباشر بالاشارة . ولما كان حد الفعل الاول طول الساعد ، فانه لا يمكنه التبليغ عن بعد ، في حين يمتد الثاني بقدر ما يمتد شعاع البصر . وهكذا لا يبقى الا البصر والسمع عضوين من أعضاء اللغة منفعلين بين أناس مشتين .

ولئن كانت لغة الاشارة ولغة الصوت طبيعيتين على حد سواء ، فان الأولى أيسر (من الثانية) وأقل خضوعا للمواضعات . فان ما يمثل الى أبصارنا من الأشياء أكثر مما يبلغ منها الى مسامعنا ، والاشكال أشد تنوعا من الأصوات ، كما هي أشد تعبيرا وأكثر احياء في أقل وقتا . فمن الحب جاء الرسم كما يقال . ومنه الكلام أيضا ولكن بأقل سعادة . وها هو مزدريه لفرط ما هو غير راض عنه . فان له من أساليب التعبير ما هو أحياء ؛ ألا فلکم شيئا تقول لحبيها تلك التي ترسم في لذة قصوى خياله ! ولکم كان يلزمها أن تستخدم من الأصوات لو عبرت عن حركة العصا تلك !

ان اشارتنا لا تعني غير حيرتنا الطبيعية . ولكني لا أريد أن أتحدث عن تلك الاشارات . فالأوروبيون ، دون سواهم ، يومنون عند الكلام : لكأن كل قوة ألستهم قد آلت الى سواعدهم . ويزيدون عليها قوة الرئين . وكل ذلك لا يجديهم نفعا . ففي حين يتخيطن الفرنسي ما أمكنه ، ويشبع هامته تعذيا بكثرة ما يقول من الكلام ، ينحي التركي غليونه عن فمه هنية ثم يتمم بكلمتين ويجهز عليه بجملة واحدة .

لقد نسينا فن الاشارات منذ أن تعلمنا الاشارة : تماما مثلما أننا بالكثير من كتب النحو الانيقة لم نعد نفقه رموز المصريين . فان القدماء لم يألوا التعبير بالألفاظ عن أحر ما كانوا يقولونه ، بل بالاشارات . ما كانوا يقولونه ولكن كانوا يبدونه .

فلتفتحوا كتب التاريخ القديم ، لتجدنها تعج بهذه الأساليب من البرهنة التي تخاطب العيون فلا يفوتها أبدا أن تخلف من الآثار ما هو أوثق مما تخلفه الأقوال

التي كان بالإمكان أبدؤها بها . إنّ الشيء ، اذا ما عرضناه قبل التكلّم عنه ، يهزّ الخيال هزّاً ، ويثير حبّ الاطّلاع ويستولي على القلب شوقاً وارتقاباً لما سيقال . ولقد لاحظت أنّ الإيطاليين والبروفانسيين يجدون فيما تعودوه من سبق الاشارة عندهم على القول ، وسيلة يجعلون بها الناس أحسن استماعاً اليهم بل وأشدّ التذاذاً بذلك . ولكن أبلغ اللغات هي تلك التي الاشارة فيها قد قالت كلّ شيء من قبل الكلام . أفلم يكن تاركان وثرانزيول وهو يهوى على رؤوس الخشخاش ، والاسكندر وهو يجعل ختمه على فم نديمه ، وديوجينيس وهو يتجول أمام زينون ، أفلم يكن هؤلاء يعبرون بأحسن من الكلام ؟ فأنيّ تسلسل من الكلام قد كان يعبر مثلما عبروا عن تلك الأفكار بعينها ؟ وهاهو داريوس وقد توغل بجيشه في سيثيا يصله من ملك السيث ضفدعة وعصفور وفأر وخمسة سهام ، هديّة يسلمها الرسول في صمت ثمّ ينصرف . ولكنّ خطابه الفاجع قد فهم ، فلم يزل أوكد على داريوس من الرجوع الى بلاده كيفما أمكنه . فلتعوضوا هذه الرموز برسالة : ليتضاء لنّ هولها بقدر ما يتعالى تهديدها . ان هي الاهذر ، وما كان داريوس الا مستخفاً بها .

عندما عزم لاوي افرائيم على أن يثأر لموت زوجته ، فأنّه لم يكتب الى قبائل بني اسرائيل ؛ بل قسم الجثة الى اثنتي عشرة قطعة وأرسل بها اليهم . فلما أن رأوا ذلك المشهد ، أسرعوا الى السّلاح صراخاً بصوت واحد :

« كلاً ، ما كان مثل هذا أبداً في اسرائيل ، من يوم أن خرج آباؤنا من مصر الى اليوم » .

وأيدت قبيلة بنجامان ^(١) . فلو كان ذلك اليوم لتقلّبت القضية بين المرافعات والمجادلات ، وربّما الفكاهات ، ولتأجّلت الى غير نهاية ، ثمّ لظّل أبشع الآثام بدون جزاء . كذلك نذكر الملك ساوول حين عاد من الحرب ، فقطّع ثيران محراثه قطعاً عديدة، ثمّ استخدم رمزا ماثلاً ليحمل به بني اسرائيل على أن يخفوا لنجدة مدينة جاباس . إنّ أنبياء اليهود ومشرّعي اليونان ، قد كانوا بما يقدمونه غالباً من الاشياء المحسوسة للشعب ، أبلغ ممّا لو خاطبوه بمقالات طويلة . وإنّ الأسلوب

الذي يذكر به أثيني أن الخطيب هيريد برأ فريني المومس من دون أن يحتج للدفاع عنها بكلمة واحدة هو كذلك فصاحة صامته ليس ينذر أثرها في كل الأزمان.

وهكذا فأتانا مخاطب العيون أحسن ممّا نخاطب الآذان . فليس ثمة من لا يشعر بصدق حكم هوراس في هذا الصدد . بل إننا لنرى أن أبلغ الخطب هي تلك التي نضمنها أكثر ما يمكن من الصور، وأن ليس للأصوات من القوة أكثر مما لها عندما تفعل فعل الألوان .

أما إذا ما تعلق الامر بأن نؤثر في القلب ونلهب العواطف، فذلك شأن آخر تماما ؛ أن الانطباع الذي يعقب الخطاب ، فيكون له وقع مضاعف ، ليخلف في المرء أثرا مختلفا عن ذلك الذي تخلفه فيه رؤيته للشيء ذاته ماثلا لحما ودما فيحيط به في طرفة عين فلتتخليلوا وضعا جدّ عاديّ من الألم؛ فانه ليعسر أن يصل بكم التأثير من مجرد رؤية الشخص المصاب الى حدّ البكاء. ولكن دعوا له من الوقت ما يكفي ليحدثكم بكل ما يحس، اذن لتجهشن لتوكم بالبكاء. وما بغير هذا الوجه تفعل فينا مشاهد التراجيديات فعلها ⁽²⁾. ان التمثيلية الایمائية التي لا كلام فيها، هي وحدها تتركنا في دعة . أما الخطاب الذي ليس فيه ايماء فينتزع الدموع ممّا انتزاعا. للعواطف ايماءاتها ولكن للعواطف أيضا نبراتنا . وان هذه النبرات التي تزلزل علينا الارض، والتي لا يمكن أن نصمّ عنها آذاننا لتسلّل منها الى صميم القلب فتحمل اليه رغم أنفسنا الحركات التي تنتزعها وتجعلنا نحس بما نسمع. فلنستنتج اذن أن ما نراه من الاشارات يزيد من دقة المحاكاة، ولكن اثاره الاهتمام أنجع بالأصوات .

ذلك ما يجعلني أعتبر أنه لو لم تكن لنا قطّ غير حاجات طبيعيّة لأمكننا جدّا أن لا نتكلّم أبدا وأن نتفاهم على التمام بمجرد لغة الإشارة ، ولكان بمقدورنا أن نقيم مجتمعات لا تختلف كثيرا عمّا هي عليه اليوم أو هي أصوب تدرجا نحو هدفها وأن نوّسس قوانين ونختار قادة ونخترع فنونا ونقيم التجارة وباختصار أن نعمل من الأشياء بقدر ما نعمله منها بفضل الكلام. ان لغة رسائل « السلام » ⁽³⁾ لتحمل من دون ما خشيه للرقيب أسرار الغزل الشرقي عبر اشدّ

الاحاريم مناعة. وبكم الرحمان يتفاهمون فيما بينهم كما يفهمون كل ما يقال لهم
بالاشارة تماما مثلما يمكن قوله بالكلام. فالسيد بيرير ومن مثله ممن يعلمون
البكم لا أن يتكلموا فحسب ولكن ايضا ان يعوا ما يقولون ، إنما هم مجبورون
على أن يعلموهم قبل ذلك لغة أخرى، لا تقل تعقيدا، يمكنهم بواسطتها أن
يفهموهم تلك اللغة .

ويذكر شاردان أن الدالين في جزر الهند يمسك بعضهم بأيدي البعض
ويغيرون من أساليب تلامسهم بحيث لا يتفطن اليهم أحد، فيعقدون بذلك كل
صفقاتهم سرا على رؤوسي الملا، ومن غير أن يتبادلوا كلمة واحدة. ان هؤلاء
الدالين، وان فرضناهم عميا، صمًا، بكما، لن يكونوا اقل تفاهما فيما بينهم. وهو
ما يبين أننا نقدر بالاقصصار على احد الحسین اللذين بهما فعاليتنا، على أن نجعل
لأنفسنا لغة .

ويظهر أيضا من الملاحظات عينها ان اختراع فن تبليغ افكارنا ليس مدينا
للأعضاء التي نخدم هذا التبليغ بقدر ما يرجع الى ملكة تخص الانسان هي التي
تجعله يستخدم لتلك الغاية اعضاءه بل تحمله، اذا ما انعدمت تلك الاعضاء،
على ان يستخدم غيرها لعين تلك الغاية، هبوا للانسان هيئة ما، مهما كانت غير
مكتملة. فانه سيكتسب لا محالة أقل أفكارا. ولكن يكفي ان يكون بينه وبين
نظراته وسيلة ما للتواصل بقدر بها بعضهم على الفعل وبعضهم على الاحساس،
حتى يتمكنوا في النهاية من أن يتبادلوا من الافكار بقدر ما عندهم منها .

● ان الهيئة التي للحيوانات لتفي بأكثر مما يحتاجه هذا التواصل. ومع ذلك فلا
واحد منها استعملها. فليت شعري، هو ذا فرق مميز حقا! اني لا أشك قط في ان
التي تعمل من الحيوانات وتعيش معا، لا سيما القنادس والثمل والنحل، تملك لغة
طبيعية ما، تتواصل بها فيما بينها. بل ثمة حتى ما يدعو الى الاعتقاد بأن لغة
القنادس ولغة الثمل انما هي لغات اشارة ولا تخاطب الا العيون. ومهما يكن من أمر
فان هذه اللغات وتلك، بما هي طبيعية، ليست مكتسبة. والحيوانات التي تتكلم
بها انما تملكها منذ الولادة. ولكل الحيوانات نفس اللغات في كل مكان، فلا

تستبدّ لها ولا تحقق فيها أدنى تقدم. اما لغة التواضح فهي لغة الانسان وحده. هو ذا ما يجعل الانسان يحقق تقدما في الخير أو في الشر، وما يجعل الحيوانات لا تحقق منه شيئا. ان مجرد هذا التمييز ليبدو عميق الابعاد : ويقال ان تفسيره يكون بالرجوع الى اختلاف الاعضاء. لكم أودّ معرفة هذا التفسير العجيب .

الفصل الثاني

. في أن أول اختراع للكلام ليس ناتجا عن الحاجات بل عن الأهواء.

ثمة اذن ما يحمل على الاعتقاد بأن الحاجات قد أملت علينا أول الاشارات ، وأن الأهواء قد انتزعت منا أول التصويّات . ولعلنا ، اذا ما تتبّعنا أثر الاحداث بالاعتماد على هذه التمييزات ، ملزمون بالتفكير في أصل اللّغات بأسلوب مختلف جدّا عن الأساليب التي اتبعت الى حدّ الآن . انّ عبقرية اللّغات الشرقية ، وهي أقدم ما هو معروف لدينا من اللّغات ، تكذب تكذيبا مطلقا ما نتخيله عن تكونها كتدرّج في التعلم . فليست هذه اللّغات من المنهج والمعقول في شيء ، بل هي حيّة ومجازيّة يراد اقناعنا بأنّ لغة الأوّلين هي لغات هندسيّين في حين نرى أنّها لغات شعراء .

لابدّ أن ذلك هو ما كان . فانّهم لم يبدأوا بالتفكير ، بل بدأوا بالاحساس . ويدّعي بعضهم أنّ البشر إنّما اخترعوا الكلام للتعبير عن حاجاتهم . يبدو هذا الرّأي غير مقبول . فإنّ المفعول الطّبيعي للحاجات الأولى إنّما كان تفريق النّاس لا تقريب بعضهم من بعض . لقد كان ذلك ضروريّا لأنّ يمتدّ التّويع وأن تعمر الأرض

بسرعة ، اذ لولاه لتكدّس الجنس البشري في ركن من العالم ولظل ما بقي منه مقفرا. وينتج بوضوح من مجرّد ما ذكرناه ان أصل اللغات ليس سببه حاجات البشر الأولى. فمن غير المعقول ان يكون ممّا يفرّق بينهم ما يجمعهم. من أين يمكن ان يكون هذا الأصل اذن؟ هو من الحاجات الأدبيّة ومن الأهواء. ان كلّ الأهواء تقرب بين الناس الذين تجبرهم ضرورة البحث عن العيش على التّباعّد . فلا الجوع ولا العطش انتزعا منهم أوّل التّصويّات ، بل الحبّ والكراهة والشفقة والغضب . ان الثّمار لا تفلت من أيدينا ، فيمكننا أن نتغذّى بها من غير كلام . كما أنّنا في صمت نطارّد الفريسة التي نريد أن نقتاتها . ولكن ، اذا ما أردنا التأثير في قلب شاب ، أو صدّ معتد أثيم ، فإنّ الطّبيعة تملي علينا نبرات وصرخات وأنات . تلك هي أقدم الكلمات المخترعة ، وذاك هو ما جعل اللّغات الأولى شادية عاطفيّة قبل أن تكون بسيطة منهجيّة . ان كلّ ما تقدّم لا يستقيم بدون تمييز . ولكنّي سأعود اليه فيما يلي .

الفصل الثالث

لابدّ أن اللغة الاولى قد كانت مجازية .

لما كانت الأسباب الأولى التي دفعت الانسان الى التكلّم هي العواطف ، فإنّ تعابيرها الأولى كانت استعارات . لقد كانت اللغة المجازية هي أول ما تولد أما الدلالة الحقيقية فكانت آخر ما اهتدي اليه . فإنّ الأشياء لم تسمّ باسمها الحقيقي إلا عندما تمّت رؤيتها في شكلها الحقيقي . ففي البداية لم يتكلّم الناس الا شعرا ولم يخطر ببالهم أن يفكّروا إلا بعد زمن طويل .

ولكنّي أحسّ ههنا أنّ القارئ يستوقفني ويلتمس أن أبيّن له كيف يمكن أن يكون التعبير مجازيا قبل أن تكون له دلالة حقيقية ، اذ المجاز اتّما يكون في تحوّل المعنى . وائي لمقرّ بذلك ، غير أنّه يجب لفهمي أن تعوّض الكلمة التي ننقلها بالفكرة التي تقدّمها لنا العاطفة . فاننا لا ننقل الكلمات الا لأننا ننقل الافكار . فلو لم يكن ذلك لما كانت اللغة المجازية تعني شيئا . سأردّ إذن بمثال :

لو أنّ رجلا متوحّشا صادف غيره من المتوحّشين لفرع ، ثمّ لحمله فزعه منهم

على أن يعتبرهم أكبر منه وأقوى بحيث يطلق عليهم اسم العمالقة ؛ ثم أنه بعد عدة تجارب سيجد أن هؤلاء العمالقة المزعومين لم يكونوا أعظم منه ولا أشدّ بأسا وأن قامتهم لا تتناسب والفكرة التي كانت مرتبطة في ذهنه بكلمة عملاق : إذ ذاك سيخترع اسما يجمع بينه وبينهم كاسم الانسان مثلا ، وسيترك اسم العمالق الى الشيء الكاذب الذي أثار انتباهه طوال مدة وهمه . تلك هي الكيفية التي يتولد بها المجاز قبل الحقيقة ، عندما تبهزنا الأهوال وتكون الفكرة الأولى التي تقدّمها لنا غير فكرة الحقيقة . انّ ما قلته عن الكلمات والأسماء ينطبق بدون صعوبة على الجمل . لما كانت الصورة الوهمية التي يقدّمها لنا الهوى هي أول ما ظهر لنا فإن اللغة التي تطابقها قد كانت أيضا أول ما اخترع ثم أصبحت تلك اللغة مجازية عندما تعرّف الفكر المستنير على خطئه الأولي ، فلم يستعمل تلك العبارات ألا بصدد عين الأهواء التي أنتجتها .

الفصل الرابع

في الخصائص المميزة للغة الأولى ، وفي التغيرات التي لابد أنْها مرّت بها .

تخرج الأصوات البسيطة من الحنجرة بالطبع ، ويكون الفم بالطبع مفتوحا بقدر أو بآخر ولكنّ تغايرات اللسان والحنك ، وهي التّغايرات التي تحوّل التّطق ، تتطلّب شيئا من الانتباه والدربة . فأنّا لا ننجزها اذا ما لم نبتغ انجازها . إنّ كلّ الاطفال في حاجة الى تعلّمها والكثير منهم لا يقدرّون على ذلك بسهولة . وفي كلّ اللّغات ، فإنّ أحرّ مواضع التعجّب غير منطوق بها ، والصراخات والأناث مجرد تصويّيات ، أمّا البكم أي الصّم ، فإنّهم لا ينطقون إلّا بأصوات غير متمفصلة . بل إنّ الأب « لامي » لا يتصوّر حتّى أنّ الناس قد كانوا يقدرّون على اختراع غير تلك الأصوات لولا أنّ الله قد تعمّد تعليمهم الكلام . فالتمفصلات قليلة العدد ولكنّ عدد الأصوات غير محدود ، ويمكن للنبرات التي تخصّها أن تتضاعف الى ما لا نهاية له . إنّ كلّ الأصوات الموسيقية هي كذلك نبرات . صحيح أنّه ليس لنا منها في الكلام غير ثلاثة أو أربعة ولكنّ الصّينيين يملكون منها أكثر من

ذلك بكثير . وفي مقابل ذلك فإن ما بهم من الحروف الصّوامت يقل عمّا لنا .
فإن أنتم أضفتم الى هذا المصدر من التركيبات ، مصدر الأزمنة أو الكميّة ، لم
تحصلوا على المزيد من الكلمات فقط ، بل كذلك على مقاطع متنوّعة تزيد عمّا
تحتاجه أئري اللّغات .

لست أشكّ أبداً في أنّ أولى اللغات لو أنّها مازالت حيّة لظلتّ بقطع النّظر
عن مفرداتها وعن قواعد تركيبها — محتفظة بخصائص أصيلة تميّزها عن كلّ
اللّغات الأخرى . فلا يكفي أنّ كلّ أساليب التعبير في هذه اللّغة لابدّ لها أن
تكون مجازات ومشاعر وصوراً ، بل ينبغي لها أن تطابق في جزئها الآلي
موضوعها الأوّل ، وأن تعرض على الحواس والذهن ما يكاد يكون محتوماً من
انطباعات الهوى الذي ينبغي البلوغ اليها .

لما كانت التصويّيات الطّبيعية غير متمفصلة ، فإنّ الكلمات ستكون في تلك
اللّغة قليلة التّفصيل . فبضعة من الحروف الصّوامت اذ تتخلّل تلك التصويّيات ،
معيرةً بذلك فجوتها ، تكفي لجعلها سلسلة سهلة النّطق . وفي مقابل ذلك فإنّ
الأصوات ستكون شديدة التّنوع كما سيضاعف تنوّع الثّرات من عدد
الأصوات عينها . ستكون الكميّة والإيقاع مصدرين جديدين للتركيب بحيث أنّ
الأصوات والتصويّيات والنبرة والعدد وهي من الطّبيعة لما كان فعلها يكاد يكفي
فعل التّفصيلات وهي من التّواطؤ ، فأننا سنغنّي عوضاً عن الكلام . إن أغلب
الكلمات الجذرية ستكون أصواتاً تحاكي نبرة الأهواء أو مفعول الأشياء الحسيّة :
فتظهر فيها الحاكية الحسيّة باستمرار .

سيكون لهذه اللّغة الكثير من المترادفات للتعبير عن الشّيء نفسه في نسبه
المختلفة (٤) . ليكوننّ لها القليل من الصّيغ الطّرفيّة ومن الكلمات المجردة للتعبير
عن تلك التّسب عينها . ولكن ليكوننّ لها من كثرة صيغ التّكبير وصيغ التّصغير
ومن الكلمات المركّبة ومن أدوات التحسين الزوائد ما تمنح به من حسن الإيقاع
للمقطوعات المتناغمة ومن التّصريح للجمل ، ليكوننّ لها الكثير من مواضع
الّلحن والشّدوذ . لتفرّطن في التّناسب التّحوي لتتمسك بدوابة الصّوت وبالعدد

والتناغم وجمال الأصوات . ليكونَ لها عوض الأدلة حكم ، ولتقنعَ من دون أن تسعى الى اقناع ، ولترسمَ من دون برهان ، ولتشبهَ اللغة الصينية من بعض الوجوه واليونانية من غيرها والعربية من غيرها . فلتوسّعوا هذه الافكار الى كلّ تفرّعاتها، ستجدون إذ ذاك أنّ كتاب اقراطيلوس لافلاطون ليس من السخافة بالقدر الذي يبدو عليه .

الفصل الخامس

في الكتابة

انّ كلّ من يدرس تاريخ اللّغات وتقدّمها واجد أنّه بقدر ما تزداد رتبة التصويّيات تتضاعف الحروف الصّوامت ، وأنّنا نستعيض عمّا يمحى من الثّبرات وعمّا يتساوى من الكمّيات بتركيبات نحويّة وتمفصلات جديدة . ولكنّ هذه التغيّرات لا تتمّ ألاّ بمفعول الزمن . فبقدر ما تنمو الحاجات وتتعدّد الأعمال وتمتدّ الأنوار تغيّر اللّغة من طابعها فتصبح أشدّ معقوليّة وأقلّ عاطفيّة ، وتعوّض المشاعر بالافكار ونكفّ عن مخاطبة القلب لمخاطبة العقل . ومن ثمّ بالذّات تنطفئ النّيرة وتتعدّد المقاطع ؛ فتصير اللّغة أشدّ ضبطا وأشدّ وضوحا ، ولكنها تصير أيضا أفتقر ، وأصمّ وأبرد . بيدر لي هذا التدرّج طبيعيّا جدّا . ثمّة طريقة أخرى في المقارنة بين اللّغات وفي الحكم على قدمها ، وهذه الطّريقة تؤخذ من الكتابة ، وذلك بحسب تناسب عكسي مع مدى اكتمال هذا الفنّ . فبقدر ما تكون الكتابة خشنّة بقدر ما تكون اللّغة قديمة . انّ الأسلوب الأوّل في الكتابة لم يكن رسم الأصوات ، بل كان رسم الأشياء نفسها ، رسما مباشرا مثلما كان

يفعل المكسيكيون ، أو ربما غير مباشر مثلما كان يفعل المصريون قديما . وتوافق هذه الحالة (زمن) اللغة العاطفية ، وهي تفترض أنّ المجتمع قد وجد بعد ، كما تفترض أنّ الأهواء قد ولدت بعد بعض الحاجات .

أمّا الأسلوب الثاني فيكون بتمثيل الكلمات والقضايا بأحرف اصطلاحية ، وهو ما لا يمكن انجازه إلا عندما يبلغ تكوين اللغة كماله ، وعندما يتحد شعب برمته في ظلّ قوانين مشتركة : فقد توفّر بعدها هنا اصطلاح مضاعف : ذلك شأن الكتابة الصينية ، وذلك هو بحقّ رسم الأصوات ومخاطبة العيون .

وأمّا الأسلوب الثالث فيكون بتقطيع الصوت المتكلم الى عدد معيّن من الأجزاء الأساسية التصويّية أو التمثيلية ، بحيث يمكن استخدامها في تركيب كلّ ما يمكن تخيّله من الكلمات والمقاطع . إنّ هذا الأسلوب في الكتابة ، وهو أسلوبنا — لا بدّ أنّه قد تخيّلته شعوب تشتغل بالتجارة ، اضطرها كونها تسافر الى عديد البلدان وكونها ملزمة بالتكلم بعدّة لغات ، الى اختراع أحرف تكون مشتركة بين كلّ اللغات . ليس هذا بالذات رسماً للكلام ، بل هو تقطيع له .

إنّ هذه الأساليب الثلاثة في الكتابة ، توافق بمقدار من الدقة مختلف الحالات الثلاثة التي يمكن أن نعتبر عليها الأفراد المجتمعين ضمن أمة : فرسم الأشياء يناسب الشعوب المتوحّشة ، وعلامات الألفاظ والقضايا تناسب الشعوب الهمجيّة والأبجدية تناسب الشعوب المدنية .

لا يجب إذن أن نعتقد أنّ هذا الاختراع الأخير دليل على اغراق الشعب المخترع في القدم بل انه ليجوز على العكس من ذلك ان يكون الشعب الذي وجده أنّما قصد الى تواصل أيسر مع شعوب تتكلّم لغات أخرى ، وهي شعوب قد كانت على أيّ حال معاصرة له ، وقد كان بإمكانها أن تكون أقدم منه . لا يمكننا ان نقول نفس الشيء عن الاسلوين الآخرين ، ولكنّي أعترف بأننا ، اذا ما تقيّدنا بما نعرفه من التاريخ والوقائع ، فإنّ الكتابة الأبجدية تبدو متساوية في القدم مع أيّ كتابة أخرى . ولكنّه من غير المستبعد أن يكون الأمر راجعا الى نقص في الآثار المتبقية من الأزمنة التي لم توجد فيها الكتابة .

أنه لما يقل احتمال أنه يكون أول من فكروا في تحليل الكلام الى علامات أساسية قد حققوا منذ البداية تقسيمات تامة الدقة . وعندما تفتنوا بعد ذلك الى نقص تحليلهم ، عمد بعضهم ، مثل اليونانيين ، الى مضاعفة أحرف أبجديتهم ، في حين اكتفى البعض الآخر بتنوع معانيها أو أصواتها بواسطة أوضاع أو تركيبات مختلفة . إن نقوش آثار تشالمينار التي صمم لنا منها شاردان رسوما ، لتبدو مكتوبة على هذا النحو . فأننا لا نتميز ضمنها إلا شكلين أو حرفين (5) . ولكنهما يتخذان أحجاما مختلفة وأوضاعا متعددة . لا بد أن هذه اللغة المجهولة التي يكاد المرء يذهل من قدمها ، قد بلغت آنذاك كمالها ، خاصة اذا ما اعتبرنا كمال الفنون التي يشهد لها جمال الاحرف ، الصروح الرائعة التي توجد بها تلك الكتابات . واتي لفي حيرة من فرط قلة ما يذكر الناس هذه الآثار العجيبة : فاني لأقرأ وصفها عند شاردان ، فما أظنني إلا قد انتقلت الى عالم آخر . يبدو لي أن كل هذا يدعو بحجة الى التفكير (6) .

لا يتبع فن الكتابة فن الكلام أصلا . بل هو يتبع حاجات من طبيعة أخرى ، وقد تبكر ولادتها عند الشعوب وقد تتأخر ، وذلك بحسب ظروف مستقلة تماما عن أعمار تلك الشعوب . ويحتمل أن لا تكون تلك الحاجات قد ظهرت أصلا لدى بعض الأمم المغرقة في القدم . أننا نجهل عدد القرون التي ظل خلالها فن الحروف الهيروغليفية هو الخط الوحيد تقريبا لدى المصريين . ولقد قام البرهان على أن مثل ذلك الخط يمكن أن يكفي شعبا متمدنا، ويشهد على ذلك مثال المكسيكيين الذين كانت كتابتهم أقل يسرا من الكتابة الهيروغليفية .

أنه لمن اليسير علينا ، عندما نقارن بين الابجديات القبطية والسريانية أو الفينيقية أن نجزم بأن إحداها متأتية من الأخرى . وقد لا يكون من الغريب أن تكون الأبجدية الأخيرة هي الأصل أو أن أحدث الشعوب قد كان علم في هذا الصدد أقدمها . وواضح أيضا أن الأبجدية اليونانية متأتية من الابجدية الفينيقية بل أننا لنرى أنها لا بد قد صدرت منها . أو سواء أكان كاد موس هو الذي جاء بها من فينيقيا أو أن غيره هو الذي جاء بها ، فإنه يبدو مؤكدا في كلتا الحالتين أن

اليونانيين لم يسعوا الى جلبها وأنّ الفينيقيين قد جاؤوا بها بأنفسهم ذلك أنّهم كانوا الأوائل من بين شعوب آسيا وافريقيا ، بل وربما الوحيدين ⁽⁷⁾ الذين تاجروا في أوروبا ، وقد جاؤوا الى بلاد اليونان قبل أن يذهب اليهم اليونان : وهو ما لا يدلّ أبداً على أنّ الشعب اليوناني ليس كمثّل شعب فينيقيا في القدم .

لم يكتف اليونانيون في البداية بتبني أحرف الفينيقيين ، بل تبنّوا حتّى اتجاه السّطر عندهم من اليمين الى الشّمال ثمّ عنّ لهم من بعد ذلك أن يخطّو خط الحراث أي أن يستأنفوا السّطر تناوبا من الشّمال الى اليمين ثمّ من اليمين الى الشّمال ⁽⁸⁾ . وأخيرا كتبوا مثلما نكتب اليوم ، أي باستئناف كلّ السّطور من الشّمال الى اليمين . ليس في هذا التّقدّم من شيء الّا وهو طبيعي . فإنّ الكتابة الحرائيّة هي من دون نقاش أيسر الكتابات قراءة . بل وأتى لمندهش من عدم اقرارها مع الطّباعة . ولكن لما كانت عسيرة الكتابة باليد ، فلا بدّ أنّها اضمحلت عندما تعدّدت المخطوطات . غير أنه ليس يلزم من أنّه ان كانت الأبجديّة اليونانية متأتية من الابجدية الفينيقية أن اللغة اليونانية متأتية من اللغة الفينيقية . فان احدى هاتين القضيتين ليست لازمة أصلا عن الاخرى . ويبدو أن اللغة اليونانية قد كانت بعد قديمة جدّا في حين أن فنّ الكتابة كان حديثا بل وناقضا عند اليونانيين . فلم يكن عندهم من الحروف ، ان كان لهم منها ، أكثر من ستّة عشر حرفا ، وذلك إلى حدّ حصار «طروادة» . ويقال ان بالاماد قد أضاف إليها أربعة وأن سيمونيد أضاف الاربعة الاخرى . انّ كل هذا قد جرّنا الى ماض بعيد بعض الشيء . وعلى العكس من ذلك فإنّ اللّغة اللّاتينيّة ، وهي أحدث من اليونانيّة ، قد حظيت منذ ولادتها تقريبا بأبجديّة كاملة لم يستعملها الرّومان الأوّل مع ذلك الا نادرا ، اذ أنّهم لم يشرعوا الا مؤخرا جدا في كتابة تاريخهم وأنهم لم يكونوا يسجلون خماسياتهم الا بواسطة مسامير .

وعلى كلّ فليس ثمة كميّة من الحروف أو من عناصر الكلام محدّدة تحديدا مطلقا . فلبعضهم أكثر ولبعضهم أقلّ بحسب اللّغات وبحسب مختلف التعديلات التي تدخلها على التّصويّات وعلى الحروف الصّوامت . انّ أولئك الذين لا

يحسبون الخمسة تصويّيات لخطّيون كثيرا فقد كان لليونانيّين منها سبعة ، وللرومان الأوّل ستة ⁽⁹⁾ . ويحتسب جماعة بور روابال عشرة منها ، أمّا السيّد دوكلو فسبعة عشر . واتي لا أشكّ قطّ في أنّه قد كان يمكننا أن نجد منها أكثر ممّا وجدنا بكثير لو أنّ العادة كانت رَهفت الأذن ورَوّضت الفم على مختلف ما في وسعهما من التّغايرات فعلى قدر رهافة العضو يتفاوت ما نجده من التّغايرات بين التّصويّات « A » حادّا والتّصويّات « O » غليظا ، أو بين التّصويّات « I » والتّصويّات « E » مفتوحا ، الخ ... ذلك ما يحسّ به كلّ واحد ممّا عندما ينتقل من تصويّات إلى آخر بصوت متّصل ومتدرّج . فأنّه يمكننا أن نضبط كثيرا أو قليلا من تلك الدّرجات ، وإنّ نرّمز اليها بأحرف خاصّة ، وذلك بقدر ما يكون فعل العادة فينا قد جعلنا حساسين بها . وتخضع تلك العادة لما هو مستعمل في اللّغة من أنواع الأصوات التي بألفها العضو من حيث لا يشعر . ويمكن أن يقال نفس الشّيء عن الحروف المفضّلة أو الصّوامت . ولكن أغلب الأهم لم يكن ذلك هو فعلها بل أخذ بعضها أبجدية البعض الآخر ومثّل بنفس الأحرف تصويّيات وتفضّلات مختلفة جدّا ، ممّا يجعل المرء مهما بلغ من الدقّة في رسم الكلمات يقرأ دائما اللّغة التي ليست لغته قراءة مضحكة ، اللهمّ إلّا أن يكون قد تدربّ عليها كثيرا .

إن الكتابة التي يبدو من مهامّها تثبيت اللّغة ، هي عنها التي تغيّرها . فهي لا تغيّر كلماتها بل عبقرتها . إنها تعوّض التعبير بالدقّة . فالمرء يؤدّي مشاعره عندما يتكلّم وأفكاره عندما يكتب . فهو عند الكتابة ملزم بأنّ يحمل كلّ الالفاظ على معناها العامّ ، ولكنّ الذي يتكلّم ينوّع من الدّلالات بواسطة النّبرات ، ويعيّن مثلما يحلو له . فما هو مكنتف من تقلّص ما كان يعوقه عن وضوح العبارة ، بل زاد ما يعطي مانتها . ولا يمكن للغة نكتبها فقط أن تحتفظ طويلا بحيويّة تلك التي نتكلّمها فقط . فأنما يكتب المرء التّصويّيات لا النغم غير أنّ النغم والنبرات ومختلف انعطافات الصوت في اللّغة ذات النبر ، هي التي تمنح التعبير أقصى ماله من الطّاقة ، وهي التي تقدّر على تحويل الجملة من جملة شائعة الاستعمال إلى جملة لا تستقيم في غير الموضوع الذي هي فيه . أمّا الأسباب التي تتخذ — للتعويض

عن ذلك. فما هي إلا توسيع من مجال اللغة المكتوبة وتمديد لها، وهي بانتقالها من الكتب الى الخطاب تشنّج الكلام عينه (10). اذا المرء أضحى كل شيء يقوله كما لو كان يكتبه، لم يغد الا قارئاً يتكلّم .

الفصل السادس

هل من المحتمل أن هوميروس
قد كان يعرف الكتابة .

ومهما قيل لنا عن اختراع الأبجدية اليونانية ، فاني لاطنّها أحدث بكثير ممّا يظنّون . وأقيم هذا الرأى أساسا على طبيعة اللّغة . فكثيرا ما خطر ببالي أن لا أشكّ فحسب في أن هوميروس قد كان يعرف الكتابة ، بل وحتى في ان الكتابة قد كانت معروفة في زمانه . ولشدّ ما يؤسفني ما تقطع به حكاية بليروفون ضمن الاليادة من تكذيب لهذا الشكّ . ولما كان من سوء حظّي ان أكون مثل الأب هاردين عنيذا بعض الشيء بمفارقاتي، فاني لو كنت أقل جهلا لوددت مدّ شكوكي الى هذه الحكاية نفسها ، واتهامها بأنها قد انتحلت من دون كبير فحص من قبل مصنّفني هوميروس . فلا يكفي أن المرء لا يكاد يرى في باقي الاليادة آثارا لهذه الصناعة بل اتّي لأجرؤ على القول بأن الأوديسة بأكملها ليست الا نسيجاً من الحماقات والعبارات التي قد كان يكفيها حرف أو حرفان لتكون هباء منثورا ، وذلك بعكس ما يقدّم لنا هذا التشيد كنشيد معقول بل وربما كنشيد حاذق النظم، بفرض أن أبطاله قد كانوا جاهلين الكتابة .

فلو أنّ الالبادة قد كانت كتبت، لقلّ التّرّم بها ولقلّ البحث عن الرّياسة ، ولقلّ تكاثر هؤلاء . فليس ثمة من بين الشعراء من ترّم بشعره مثلما ترّم بشعر هوميروس . اللهم الا «تاس» بالبندقية . وحتى هو فلم يتغن بشعره الا العنادلة، وليسوا بقراء كبار . ثم ان اختلاف اللهجات التي يستخدمها هوميروس يمثل أيضا قرينة متينة جدا . فان اللهجات تمايز ضمن الكلام ، وتتقارب بل تندغم ضمن الكتابة ، بحيث يرجع كل شيء من حيث لا ندري إلى نموذج مشترك . فان الامة بقدر ما تقرأ وتتعلم تذوب لهجاتها ، فلا تبقى في الأخير الا في شكل رطانة لدى الجمهور الذي يقرأ قليلا ولا يكتب أصلا .

ولكن لما كان هذان النشيدان متأخرين عن حصار طروادة، فانه لا يجوز البتّة أنّ الذين قاموا بهذا الحصار من اليونانيين قد عرفوا الكتابة وأنّ الشاعر الذي تغنّى به لم يعرفها . لقد ظلّ هذان النشيدان طويلا مكتوبين في ذاكرة الناس فقط . ثمّ تمّ تدوينهما مؤخرًا وبمشقة كبرى . فعندما بدأت بلاد اليونان ، تعجّ بالكتب والشعر المكتوب ، اذ ذاك شعر الناس بروعة شعر هوميروس بالمقارنة مع كلّ ذلك . لقد كان غيره من الشعراء يكتبون أمّا هو ميروس فهو وحده قد تغنّى ولم تزل أناشيده الالهية ملدودة السماع حتّى امتلأت أوروبا بالهمج الذين أقبلوا يحكمون على ما لم يكن بوسعهم تذوّقه .

الفصل السابع

في العروض الحديث

ليس لنا من تصوّر عن لغة زبّانة متناغمة تتكلّم أنغاماً كما تتكلّم أصواتاً . ولعمري فإنّ المرء ليظنّ خطأ أنّ التّبرات تقوم مقام التّغم . فإنّا لا نخترع التّبرات إلّا وقد ضاع ممّا التّغم وانتهى ⁽¹¹⁾ وأبعد من ذلك في الوهم ما نعتقده من أنّ لنا في لغتنا نبرات في حين لا نملك منها شيئاً . فليست نبراتنا المزعومة إلّا مصوّتات أو علامات كميّة ، ولا تشكّل أي نوع من التّغم . ويدلّ على ذلك ما يمكن من ادائها كلّها أمّا بأزمنة متفاوتة أو بتغايرات في قرع الشّفاه واللّسان أو الحنك ، وعن كلّ هذه يكون تمايز الأصوات فليس ثمة نبرة واحدة يتمّ أدائها بواسطة تغايرات الحنجرة التي عنها يكون تمايز الأنغام . وهكذا فإن لم تكن نبرة المدّ عندنا مجرد صوت فهي مصوّت طويل أو هي لا شيء . ولننظر الآن في الكيفيّة التي كانت عليها نبرة المدّ لدى اليونانيّين :

يقول دونيس الهليكرنابيّ أنّ رفع الصّوت عند النّبرة الحادّة وخفضه عند النّبرة الغليظة قد كانا فاصلة خماسيّة . وهكذا فإنّ النّبرة العروضيّة وخاصّة نبرة المدّ ، قد كانت أيضاً نبرة موسيقيّة يرتفع فيها الصّوت بفاصلة خماسيّة ، ثمّ ينخفض

فاصلة أخرى وذلك في نفس المقطع ⁽¹²⁾ . فنحن نرى بما يكفي ، في هذا النص وفيما يتصل به ، أن السيد دوكلو ينكر وجود نبرة موسيقية في لغتنا ، فلا يعترف إلا بالنبرة العروضية ونبرة المصوت . وتضاف الى ذلك نبرة الرسم التي لا تتغير من الصوت شيئا ولا من النغم ولا من الكمية ، ولكنها تارة تشير الى حرف مضمّر كما هو الحال في نبرة المد وطورا تضبط ما يلتبس من معنى كلمات آحادية المقطع كما هو الحال في النبرة الغليظة التي تميز « ou » ظرف المكان عن « OU » أداة الفصل ، أو تميز « à » كأداة عن « a » كفعل . ان هذه النبرة لا تميز بين هذه الكلمات الأحادية المقطع إلا بالعين ، وليس ثمة ما يميز بينها في التلق . وهكذا فإن ما يعتمده الفرنسيون غالبا من تعريف للنبرة لا يطابق أية نبرة في لغتهم .

وإني لأتصور أن الكثير من النحويين الذين تعلّموا أن النبرات إنما هي علامات ارتفاع في الصوت أو انخفاض فيه ، سيضجون هنا أيضا ، تنديدا بالمفارقة . وهم لفرط ما لا ينتبهون الى التجربة ، سيظنون أنفسهم قادرين على أن يؤدّوا بتغايرات في الحنجرة عين تلك النبرات التي لا يؤدّونها إلا بتغايرات انفتاحات الفم وأوضاع اللسان ⁽¹³⁾ . ولكن هاكم ما سأقوله لهم معاناة للتجربة وجعلا لحجتي مفحمة :

فلتناغموا بين صوتكم وتصادي بعض الآلات الموسيقية ، ولتنطقوا على ذلك التصادي كلّ ما يمكنكم تجميعه من الكلمات الفرنسية المتتالية مهما اختلفت نبراتها . ولما كان الأمر غير متعلّق هنا بالنبرة الخطائية ولكن بالنبرة التحوية ، فليس حتّى من الضروري ان تكون هذه الكلمات المختلفة متتابعة المعنى . ولتنظروا فيما أنتم تتكلّمون هكذا ان لم تكونوا تؤدّون على نفس ذلك الصوت كلّ النبرات ، وذلك بنفس القدر من الوضوح والجلء الذي قد كان يكون لكم لو أنكم كنتم تنطقون بدون قيد وأنكم كنتم تغايرون طبقتكم الصوتية . فإني أقول ، اذا سلّمنا بهذا الأمر وهو أمر لا يقبل النقاش لما كانت كلّ النبرات تؤدّي على نفس الطبقة ، فإنها لا تشكّل أصواتا مختلفة . ولا أتصوّر ما يمكن الردّ به على هذا القول .

ان كلّ لغة يمكن لنا فيها أن نخلع عدّة الحان موسيقيّة على نفس الكلمات ، فليس لها أيّة نبرة موسيقيّة محدّدة اذ لو كانت النبرة محدّدة لكان اللّحن كذلك .فما ان يصبح الغناء تحكّمية حتّى تصير النبرة زائدة لا طائل من ورائها .

انّ كلّ اللّغات الاوروبية الحديثة هي في نفس الحالة تقريبا وحتّى الايطالية ، فإنّي لا أستثنى منها . فإنّ اللّغة الايطاليّة ، كاللّغة الفرنسيّة ، ليست موسيقيّة في حدّ ذاتها أصلا . ولا يرجع الفرق بينهما الا الى كون احدهما قابلة للموسيقى وأنّ الاخرى غير قابلة لها .

ويؤدّي كلّ ما تقدّم الى اثبات هذا المبدأ : أنّ كلّ اللّغات الأديّة لابدّ لها بموجب تقدّم طبيعيّ أن تغفّر من طبعها ، فتتضاءل قوّتها ليتزايد وضوحها وأنّا بقدر ما تتعلّق همّتنا بتحسين التّحو والمنطق ، نزيد من سرعة هذا التقدّم ، وأنّه لا يلزمنا لكي نسرّع في جعل لغة ما لغة باردة ورتيبة الا اقامة أكاديمية لدى الشعب الذي يتكلّمها .

تعرف اللّغات المشتقّة بما فيها من الفرق بين الرّسم والنطق . فبقدر ما تكون اللّغات قديمة وأصيلّة بقدر ما يقلّ التحكّم عن أسلوب نطقها ، فيقلّ بالتالي تعقيد الحروف المحدّدة لهذا النطق ويقول السيّد دوكلو « أنّ كلّ ما كان لدى القدماء من العلامات العروضيّة حتّى اذا ما افترضنا أنّه قد وقع ضبط مواطن استخدامها لم تكن تضاهي الاستعمال » . أمّا أنا ، فسأقول أكثر من ذلك : لقد عوّضت تلك العلامات الاستعمال . فلم يكن للعبرانيين نقط أو نبرات ، ولم يكن لهم حتّى مصوّتات . وعندما أرادت الأمم الاخرى أن تشتغل بتعلّم العبريّة ، وعندما تكلم اليهود لغات أخرى ، فقدت لغتهم رتبتها . فكان لابدّ لضبطها من النقط والعلامات . ولكن ذلك أثبت معاني الكلمات من جديد أكثر ممّا أثبت نطق اللّغة . فلو تكلم يهود اليوم بالعبريّة لما فهمهم أجدادهم . وتقتضي معرفة اللّغة الانكليزية أن نتعلّمها مرّتين : اجداهما قراءة والاخرى نطقا . هب أنّ انكليزيّا كان يقرأ ما كان شخص آخر غريب عنه يتابع (ما كان

يقرأ) في الكتاب . فإنّ هذا الأخير لن يجد أية علاقة بين ما يراه وما يسمعه . لم ذلك ؟ لأنّه لمّا كانت انقلترا قد تعاقبت على احتلالها شعوب مختلفة ، فقد ظلّت الكلمات تكتب بنفس الرّسم في حين تغيّر أسلوب نطقها كثيرا . فثمة فرق حقيقيّ بين العلامات التي تحدّد معنى الكتابة والعلامات التي تضبط النطق . وقد يكون من اليسير جدّا أن نضع بالصّوامت وحدها لغة جدّ واضحة في الكتابة ولكنّه لا يكون بوسعنا التكلّم بها . ولعلّ في الجبر بعضا من هذه اللّغة . فعندما تكون لغة ما أوضح برسمها ممّا هي بنطقها ، فتلك شهادة على أنّها مكتوبة أكثر ممّا هي منطوقة . ولعلّ لغة العلماء المصريين قد كانت على هذه الحالة . كذلك اللّغات الميتة بالنسبة لنا . أمّا اللّغات التي تشحن بما لا يلزم من الصّوامت، فرمّا بدت الكتابة سابقة فيها على الكلام . ومن لا يظن اللّغة البولونية في هذا الوضع ؟ واذا صحّ ذلك، فلا بد ان تكون البولونية ساعتها أبرد اللّغات كلها .

الفصل الثامن

اختلاف أصل اللغات عموما ومحليا .

إنَّ كلَّ ما قلته الى هذا الحد ينطبق على اللغات البدائية عامة وعلى ما يحصل في خلال مدتها من تقدّم . ولكنّه لا يفسّر أصلها ولا اختلافاتها . فإنَّ السبب الرئيسي الذي يميّز بينها محلي . فهو آت من المناخات التي تتولّد فيها ومن الاساليب التي تتكوّن بها . فإلى هذا السبب يجب الرجوع إذا رمنا تصوّر ما نلاحظه بين لغات الجنوب ولغات الشمال من اختلاف عام وخصوصي . إنَّ عيب الأوروبيين الكبير هو أنَّهم يتفلسفون دائما في أصول الأشياء بحسب ما يحدث حولهم . فلا يقدّعون أبدا عن أن يقدّموا لنا مشهد الناس الأوّلين اذ يسكنون أرضا قاسية قاحلة ويموتون بردا وجوعا ، ويتعجّلون في أن يصنعوا لأنفسهم غطاء ولباسا . وانهم لا يرون — أينما رفعوا أبصارهم — إلا جليد أوروبا وثلوجها ، فلا يخطر ببالهم أن التّوع البشري ككلّ الأنواع الاخرى انما تولّد في البلاد الساخنة وأنّ ثلثي الكرة الأرضية لا يكادان يعرفان الشّتاء . لا بدّ من أن ننظر حولنا عندما نريد أن ندرس الناس . ولكننا عندما نريد أن ندرس الانسان

مطلقا ، لابدّ أن نشيّع بصرنا الى بعيد . لا بدّ من أن نلاحظ الفروق أولا حتّى نكتشف الخصائص .

إنّ الجنس البشري الذي تولّد في البلاد الساخنة ، يمتدّ من بعد ذلك الى البلاد الباردة . فهناك يتكاثر ثمّ ينسحب الى البلاد الساخنة . وعن هذا الوضع من الامتداد والانسحاب ، تكون انقلابات الارض ويكون اضطراب سكّانها المتواصل . فلنعمل على أن نساير في بحوثنا نظام الطبيعة ذاته . واتي لمقدم هنا على استطراد طويل في موضوع قد أكل عليه الدهر وشرب حتّى صار مبتذلا . ومع ذلك فلا بدّ من الرجوع اليه دائما حتّى نقف على أصل المؤسسات الانسانية .

الفصل التاسع

تكوّن اللّغات الجنوبيّة

لم يكن للبشر المشتتين على وجه الأرض في الأزمنة الأولى⁽¹⁴⁾ من مجتمع الّا مجتمع الأسرة ، ولم تكن لهم من القوانين الّا قوانين الطّبيعة ومن اللّغة الّا لغة الايماء، وبضعة أصوات غير متمفصلة⁽¹⁵⁾ لم تكن تربط بينهم أيّة فكرة للأخوة المتبادلة . ولما لم يكن لهم في ما عدا القوّة من حكم فقد كانوا يظنّون بعضهم أعداء للبعض . فضعفهم وجهلهم هما اللّذان كانا يعطيانهما هذه الفكرة . ولما كانوا لا يعرفون شيئا ، فقد كانوا يخافون كلّ الأشياء . لقد كانوا يهاجمون غيرهم للدّفاع عن أنفسهم . إنّ الانسان الذي ندعه وحده على وجه الأرض تحت رحمة الجنس البشري لا بدّ أنّه قد كان حيوانا شرسا . لقد كان مستعدّا لأنّ يلحق بالآخرين كلّ الشرّ الذي كان يخشاه منهم. فإنّ الخوف والضعف هما أصل القساوة .

لا تنمو الأهواء الاجتماعيّة فينا الّا بقدر استنارتنا . فلولا الخيال الذي يحركها لظلّت الشفقة على كونها طبيعيّة في قلب الانسان جامدة الى الأبد . كيف يبلغ

بنا التأثير الى حدّ الشفقة ؟ انّ ذلك يكون بانتقالنا خارج أنفسنا وتماهينا مع الكائن الذي يتألّم. فأنّا لا نتألّم الا بمقدار ما نعتبر أنّه يتألّم . وما في أنفسنا نحسّ بالألم بل في نفسه هو نحسّ به . فليتأمل المرء فيما يتطلّبه هذا الانتقال من المعارف المكتسبة : كيف يمكنني أن أتخيّل ألما ليس لي أيّ تصوّر عنها ؟ كيف أتألّم لرؤية غيري يتألّم ان لم أكن أعرف على الأقلّ أنّه يتألّم ، وكيف ان كنت جاهلا بما هو مشترك بينه وبينني ؟ فمن لم يفكر أبدا لم يمكنه أن يكون رحيمًا ولا عادلا ولا عطوفاً ، بل لم يمكنه حتّى أن يكون قاسيا وحقودا . من لا يتخيّل شيئا لا يحسّ بغير نفسه ، وهو وحيد وسط الجنس البشري .

يتولّد التفكير عن الأفكار اذ نقارن بينها ، وكثرة الأفكار هي التي تحملنا على ذلك . فليس بوسع من لا يرى غير شيء واحد أن يقارن . والذي لا يرى الآلّا عددا يسيرا منها ، لم يزل هو هو منذ صباه ، فأنّه لا يقارن بينها أيضا ، لأنّ تعوّده رؤيتها يجرده ممّا يلزمه من الانتباه لتفحصها . ولكننا على قدر ما يسترعي انتباهنا شيء جديد ، نروم معرفته ، ونروم أن نقف له على علاقات بما نعرفه من الأشياء . فأنّا هكذا نتعلّم اعتبار ما هو واقع تحت أنظارنا ، وهكذا أيضا تحملنا رؤية ما هو غريب عتّا على أن نتلفّت الى فحص ما هو قريب منا .

فلتطبّقوا هذه الأفكار على الناس الأولين، سترون اذ ذاك علة همجيتهم . فلأنّهم لم يروا أبدا غير ما كان محيطا بهم ، فقد جهلوا حتّى إياه ، بل لم يعرفوا بعضهم بعضا . لقد كان في أذهانهم صورة عن الأب أو عن الابن أو عن الأخ ، أما عن الانسان فلا . وكانت أكوأخهم تؤوى كلّ نظرائهم . وفي حسابهم أنّ الغريب والدابة والغول هي كلّها سواء ، وما كان الكون بأسره عندهم شيئا غير ما كانوا وما كانت عائلاتهم .

من هنا يأتي ما نراه من التناقضات الواضحة بين أولياء الأمم : كلّ تلك الفطرة مع كلّ تلك الوحشية ، كلّ تلك الشراسة في العادات مع كلّ تلك الرقة في القلوب ، كل ذلك الحبّ لعائلاتهم مع كل ذلك البغض لنوعهم . لقد ازدادت مشاعرهم قوّة باستقرارها في أقربايهم : اذ كان كلّ ما يعرفونه عزيزا

عليهم . ولَمَّا كانوا أعداء لبقية العالم الذي لم يكونوا يرونه ، والذي كانوا يجهلونه ، فانهم لم يكونوا يكرهون إلا ما لم يكن بوسعهم معرفته .

لقد كانت أزمنة الهمجية هذه هي القرن الذهبي لا لأن الناس كانوا متحدين ولكن لأنهم كانوا متفرقين . لقد كان كل واحد منهم ، على ما يقولون ، يُعد نفسه سيد كل شيء . ربما ! ولكن لم يكن منهم من كان يعرف أو يشتهي غير ما كان في حوزته . فلقد كانت حاجاته تبعده عن نظرائه عوضا عن أن تقربه منهم . وإن شئتم ، فإن الناس كانوا يهاجم بعضهم بعضا عند اللقاء ولكنهم نادرا ما كانوا يلتقون ، لقد كانت حالة الحرب تسود كل مكان ومع ذلك فقد كانت كل الأرض في سلام .

لم يكن الأولون حراثين ، بل كانوا صيادين ورعاة ، ولم تكن الثروات الأولى حقولا بل كانت قطعانا . وقبل أن يتم تقسيم ملكية الأرض لم يكن يدور بخلد امرئ أن يفلحها . فالفلاحة صناعة تتطلب أدوات . والزرع القاصد الى الحصاد يسعى يحتاج الى بصيرة : ان الانسان في المجتمع يسعى الى التوسع ، أما الانسان المنعزل فينطوي على نفسه ، فلا يكاد يتجاوز المدى الذي يمكن لعينه أن تبصر فيه ، ويمكن ليد أن تبلغه حتى ينقطع حقه وتنقطع ملكيته . فان العملاق لا يدرج الصخرة الى ولجة كهفه حتى يبيت آمنا هو وقطعانه . ولكن من ذا الذي سيرعى حصائد من لا تسهر عليه القوانين .

لسوف يعترض عليّ بأن قايين قد كان حراثا وأن نوحا قد تعاطى غرس الكروم . وما العجب في ذلك ؟ لقد كان كلاهما وحيدا . فما الذي كانا يخشيان ؟ ومن جهة أخرى ، فإن هذا الاعتراض لا يزعزعني أصلا . فلقد بينت فيما تقدم ما أعنيه بالأزمنة الأولى . وعندما أصبح قايين هاربا فلقد اضطرّ فعلا الى ترك الفلاحة . كذلك فلا بد أن حياة التيه التي عاشها أبناء نوح قد أنستهم الفلاحة . لقد كان ضروريا أن تعمّر الأرض قبل أن تفلح . فهذان أمران لا ينقضيان معا . لقد انقطعت الفلاحة خلال التشتت الأول للجنس البشري . وظلّت كذلك الى أن ظهرت الأسرة وتمّ للانسان أن يأوي الى مسكن قار . ان

الشعوب التي لا تستقرّ أبدا لا يمكنها أن تفلح الأرض . ذلك هو ما كان من أمر
الرحّل والعرب إذ يعيشون تحت الخيام ، وذلك ما كان من أمر السيّث على
عرباتهم . وكذلك ما يزال اليوم يعيش التّتر التّائبون ، ومتوحّشو أمريكا .

وبصفة عامّة ، فإنّنا نجد لدى كلّ الشعوب التي نعرف أصلها أنّ أوّل الهمج
قد كانوا شرهين ولا حمين أكثر ممّا كانوا فلاّحين وأكلة حبوب ويذكر لنا اليونانيون
اسم أوّل من علّمهم حراثة الأرض ، ويبدو أنّهم لم يعرفوا هذه الصّناعة إلّا مؤخّرا
جداً . ولكنّهم عندما يضيفون أنّهم لم يكونوا يقاتنون قبل تريفتو ليموس إلّا من
البلوط ، فإنّهم يقولون أمرا عديم الاحتمال ويكذّبه تاريخهم بالذّات . ذلك أنّهم
إنّما كانوا يقاتنون من اللّحم قبل تريفتو ليموس ، اذ هو منعهم من أكله . ولكنّنا
لا نرى مع ذلك أنّهم قد حسبوا لهذا التّحريم كبير حساب .

فلقد كانوا فيما يصفه هوميروس من ولائتهم ، يصرعون لاطعام ضيوفهم
ثورا كما نصرع اليوم خنوصا ، وإنّه ليمكننا أن ندرك مدى ما كان أهل تلك الأزمنة
مفترسي لحوم عندما نقرأ أنّ ابراهيم قد قدّم عجلا لثلاثة أشخاص وأنّ أومي
قد أمر بطبخ جديين لعشاء أوليس ، وأنّ ريبكا قد أمرت بمثل ذلك لعشاء
زوجها . فإنّ نحن رمنا أن نتصوّر أكالات القدامى لم يكلفنا ذلك أكثر من أن
ننظر الى ما يأكله المتوحّشون : وقد كدت أقول ما يأكله اليوم الانقليز .

إنّ أوّل ما أكل من الحلوى قد كان أوّل اندماج للجنس البشري . فعندما بدأ
النّاس يستقرون ، كانوا يستصلحون شيئا من الأرض حول أكواخهم . لقد كان
ذلك بستانا أكثر ممّا كان حقلا . فكانت الحبوب القليلة التي يصيبنونها تطحن
بين حجرين ثمّ يصنعون منها بعض الحلويات يطبخونها تحت الرّماد أو الجمر أو
فوق حجر حام ولا يأكلون منها إلّا في الولائم . إنّ هذه العادة القديمة التي
احتفظ بها لدى اليهود من خلال عيد الفصح مازال يحتفظ بها اليوم في بلاد فارس
وجزر الهند . فلا يأكل المرء فيها الا خبزا بدون تخمير وهذه الرقاقات من الخبز تطهى
وتستهلك عند كل وجبة . فلم يخطر ببال النّاس أن يخمروا الخبز الا عندما احتاجوا
الى المزيد منه : ذلك ان التخمير لا يكون جيّدا عندما تكون كمّيّة الخبز صغيرة .

وَأَتَى أَعْلَمُ أَنَّنَا نَجِدُ أَنَّ الْفَلَاحَةَ قَدْ انْتَشَرَتْ بَعْدَ مِئَةِ زَمَنِ الْبَطَارِكَةِ . وَلَا بَدَّ أَنَّ جَوَارَ مِصْرَ قَدْ حَمَلَ الْفَلَاحَةَ إِلَى فِلَسْطِينَ مِنْ زَمَنِ مُبَكَّرٍ . فَإِنَّ كِتَابَ أَيُّوبَ وَلَعَلَّهُ أَقْدَمُ مَا يَوْجَدُ مِنَ الْكُتُبِ يَتَحَدَّثُ عَنْ فَلاحةِ الْحَقُولِ ، وَيَقْدَرُ خَمْسَمِائَةَ زَوْجٍ مِنَ الثِّيَرَانِ ضَمِنَ ثُرَوَاتِ أَيُّوبَ . فَكَلِمَةُ الزَّوْجِ هَذِهِ تُوْحِي بِمَشْهَدِ الثِّيَرَانِ مَقْرُونَةٍ أَزْوَاجًا فِي الْعَمَلِ ، بَلْ وَيُثَبِّتُ الْكِتَابُ أَنَّ هَذِهِ الثِّيَرَانِ قَدْ كَانَتِ تَحْرَثُ سَاعَةً اخْتِطَفَهَا السَّبْيُونُ . وَمِنَ الْمَيْسُورِ أَنَّ يَقْدَرُ الْمَرْءُ مِئَةَ اتِّسَاعِ الرَّقْعَةِ الَّتِي كَانَ يَحْرَثُهَا خَمْسَمِائَةَ زَوْجٍ مِنَ الثِّيَرَانِ .

كُلُّ هَذَا صَحِيحٌ . وَلَكِنْ لَا يَجِبُ أَنْ نَخْلُطَ بَيْنَ الْأَزْمَانِ . فَإِنَّ زَمْنَ الْبَطَارِكَةِ الَّذِي نَعْرِفُهُ ، بَعِيدٌ جَدًّا عَنِ الزَّمَنِ الْأَوَّلِ . فَالْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ يَحْتَسِبُ عَشْرَةَ أَجْيَالٍ بَيْنَ هَذَيْنِ الزَّمَنَيْنِ ، فِي تِلْكَ الْقُرُونِ الَّتِي كَانَ النَّاسُ يَعْمُرُونَ فِيهَا طَوِيلًا . فَمَا الَّذِي تَرَاهُمْ فَعَلُوهُ خِلَالِ هَذِهِ الْأَجْيَالِ الْعَشْرَةِ ؟ إِنَّا لَا نَعْرِفُ عَنْ ذَلِكَ شَيْئًا . فَإِنَّ مَا كَانُوا يَعِيشُونَ فِيهِ مِنَ التَّشَتُّتِ وَمِنَ انْعِدَامِ الْمَجْتَمَعِ قَدْ جَعَلَهُمْ لَا يَكَادُونَ يَتَكَلَّمُونَ . فَأَتَى لَهُمْ أَنْ يَكْتُبُوا ؟ وَمِنْ لَهُمْ — مَعَ زَيْبَةِ حَيَاتِهِمِ الْمُنْعَزَلَةِ — بِأَحْدَاثِ يَدُونُونَهَا لَنَا ؟

لَقَدْ كَانَ آدَمُ يَتَكَلَّمُ ، وَكَانَ نُوحٌ يَتَكَلَّمُ . فَلْيَكُنْ ! أَمَّا آدَمُ فَقَدْ عَلَّمَهُ اللَّهُ ذَاتَهُ . وَأَمَّا أَبْنَاءُ نُوحٍ ، فَقَدْ تَرَكُوا الْفَلَاحَةَ عِنْدَمَا تَفَرَّقُوا ، فَانْدَثَرَتِ اللَّغَةُ الْمَشْتَرَكَةُ بَانْدَثَارِ الْمَجْتَمَعِ الْأَوَّلِ . وَلَقَدْ كَانَ ذَلِكَ حَادِثًا حَتَّى وَلَوْ لَمْ يَوْجَدْ بَرَجُ بَابِلَ أَبَدًا . فَإِنَّا قَدْ رَأَيْنَا الْأَفْرَادَ الْمُتَوَحِّشِينَ فِي الْجَزْرِ الْخَالِيَاتِ يَنْسُونَ عَيْنَ لُغَتِهِمْ . وَقَلَمَّا احْتَفَظَ أَنَاسٌ أَقَامُوا بِغَيْرِ أَرْضِهِمْ بِلُغَتِهِمِ الْأَوَّلَى وَقَدْ مَضَتْ عَلَيْهِمْ أَجْيَالٌ عَدِيدَةٌ ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ أَعْمَالٌ مَشْتَرَكَةٌ وَحَيَاةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ .

وَلَمَّا تَشَتَّتَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الصَّحَرَاءِ الشَّاسِعَةِ مِنَ الْعَالَمِ ، سَقَطُوا مِنْ جَدِيدٍ فِي الِهْمَجِيَّةِ الْخَمَقَاءِ الَّتِي لَوْ أَنَّهُمْ وَلَدُوا مِنَ التُّرَابِ لَوَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِيهَا . فَإِذَا مَا تَبَعْنَا هَذِهِ الْأَفْكَارَ الشَّدِيدَةَ التَّسَاوُقِ ، تَيَسَّرَ لَنَا أَنْ نُوَفِّقَ بَيْنَ سُلْطَةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ وَالصُّوَرِ الْقَدِيمَةِ ، وَلَمْ نَضْطَرْ إِلَى أَنْ نَعْتَبِرَ أَنَّ تَقَالِيدَهَا مِنَ الْقَدَمِ مَا لِلشُّعُوبِ الَّتِي خَلَفَتْهَا لَنَا هِيَ خَرَافَاتٌ .

لم يكن للناس بدّ من أن يعيشوا في تلك الحالة من التوحش . فأما أنشطهم وأمتنهم عضلات ، أولئك الذين اعتادوا أن يتقدّموا غيرهم دوماً ، فما كان يوسعهم إلا أن يقتاتوا من الثمار ومن الصيد . فأصبحوا بذلك صيادين غلاضاً وسفاكي دماء ، ثم تحوّلوا بمرور الزمن الى محاربين وغزاة ونهبة . لقد دّس التاريخ صروحه بجرائم هؤلاء الملوك الأول . فليست الحرب والغزوات إلا تصيّد للناس يغزونهم ثم لا يبقى لهم من بعد ذلك إلا افتراسهم : ذلك هو ما تعلّمه خلفاؤهم .

وأما السّواد الأكبر من النّاس ، فقد كانوا أقلّ نشاطاً وأكثر وداعة، فتوقّفوا بأسرع ما أمكنهم وجمعوا بعض الماشية فروّضوها وآفوها صوت الانسان ليتغذّوا بها . كما تعلموا أن يرعوها وأن يجعلوها تتكاثر : وهكذا بدأت الحياة الرّعويّة .

إنّ صناعة الانسان تمتدّ بامتداد الحاجات التي تولّدها . ومن بين الأساليب الثلاثة التي يمكن للانسان أن يعيش بها ، وأعني الصيد ورعاية قطعان الماشية والفلاحة فإنّ الأوّل يعودّ البدن على القوة والمهارة والعدو كما يعودّ النّفس على الشّحاعة والحيلة . فهو يجعل الانسان صليبا شريفا . إنّ بلاد الصيادين لا تظّل طويلاً بلاد الصيد ⁽¹⁶⁾ . لا بدّ من مطاردة الفريسة بعيدا . لا بدّ اذن من استخدام الأسلحة الخفيفة كالمقلاع والسّهم والرّمح . أمّا الفنّ الرعوي ، وهو أبو الرّاحة وأبو العواطف المتبلّدة ، فهو أشدّ الصناعات اكتفاء بنفسه، اذ يوفّر للانسان من غير مشقّة تقريبا ، عيشه ولباسه ، بل يوفّر له ، حتّى مأواه : فلقد قدّت خيام أوّل الرّعاة من جلود الماشية . وما كان سقف عرش موسى وتابوته من غير هذا الجلد . أما الفلاحة ، وهي أبطأ في الولادة، فتتصل بكلّ الفنون : فهي تجلب الملكيّة والحكم والقوانين ، كما تجلب بالتدرّج الشّقاء والجرائم التي لا يمكن عندنا فصلها عن علم الخير والشرّ . لذلك لا يعتبر اليونانيون أن تريفوليموس قد كان فقط مخترعا لفنّ نافع ، بل يعتبرون أيضا أنّه قد كان معلّما وحكيما أخذوا عنه أوّل ما كان لهم من النّظام والقوانين وعلى العكس من ذلك يبدو أنّ موسى لا يبارك الفلاحة وذلك لأنّه مجل مخترعها ضالّا ومجل قرابينها غير مقبولة عند الله

فكأن أول الحرّاثين قد أعلن في طباعه عن النتائج السيئة لصناعته . لقد كان
نظر مؤلف سفر التكوين أبعد من نظر هيرودوتس .

وتتصل بالتقسيم السابق الحالات الثلاث للانسان من حيث علاقته بالمجتمع .
فالمتوحش صياد والهمجي راع والانسان المدني حرّاث .

وسواء أسعينا الى الكشف عن أصول الفنون أو عمدنا الى ملاحظة أولى
العادات ، فأتنا نرى أن كلّ ذلك راجع في مبدئه الى وسائل تحقيق العيش . فما
كان من بين هذه الوسائل جامعا للناس ، فهو محدّد بالمناخ وبطبيعة الأرض .
فبهذه الأسباب أيضا يتعيّن تفسير اختلاف اللغات وتعارض خصائصها .

لقد كانت البلاد ذات المناخات المعتدلة والاراضي الدسمة والخصبة هي الأولى
من حيث عمراتها والأخيرة من حيث تكوّن الأمم بها ، وذلك لأنّه قد كان أيسر
على الناس في هذه الأماكن أن يستغنى بعضهم عن البعض ، ولأنّ الاحساس
بالحاجات التي يتولّد عنها المجتمع لا يظهر فيها الا بعد ذلك .

فلتفترضوا أنّ الأرض قد خيّم عليها فصل ربيع دائم : ولتفترضوا في كلّ مكان
ماء وماشية ومراعي : ولتخيّلوا حالة الناس اذ سوتهم يد الطبيعة ، وقد انتشروا في
كلّ ذلك . لا أتصوّر كيف يمكنهم أبدا أن يتنازلوا عن حرّيتهم الأولى ، وأن
يفادروا الحياة المنعزلة والرّعوية ، وهي على مثل هذا القدر من التلاؤم مع لا
مبالاتهم الطّبيعية ⁽¹⁷⁾ ، لكي يلزموا أنفسهم بما لا يلزم من العبوديّة والأشغال
والشقاوات التي لا تنفكّ عن الحالة الاجتماعيّة .

ما كان على الذي اراد للانسان أن يكون اجتماعيا ألا أن يجعل اصبعه على
محور الكرة الأرضيّة ، ثمّ أن يميله على هذا الكون . ها أتني أرى الأرض قد تغيّر
وجهاها بفعل هذه الحركة الخفيفة : وها أتني أرى الجنس البشري قد تقرّر قدره
وأني لسامع صيحات الفرحه يرسلها جمع ممّن لا رشد لهم . وها أنا أرى الناس
يقيمون القصور والمدن . وهاهي الفنون تولد والقوانين والتجارة . وهاهي الشعوب
تتكوّن فتمتدّ وتنحلّ وتتوالى كما تتوالى سيول البحر . وأتني لأرى الناس وقد احتما

في بعض النقاط من منازلهم ، يتآكلون ، ويحولون ما بقي من العالم الى صحراء موحشة ، صرحا يشهد على وحدة المجتمع وعلى منفعة الفنون .

فاذا ما سعيتم الى تحديد الأماكن التي ولد فيها آباء الجنس البشري والتي نشأت منها الشعوب الأولى وجاءت منها الهجرات الأولى ، فأنكم لن تنطقوا بأسماء المناخات المعتدلة لآسيا الصغرى أو صقلية أو افريقيا أو حتى مصر ، بل ستذكرون رمال كلدان وصخور فينيقيا . وستجدون الأمر نفسه في كل الأزمان . فإن الصين مهما عمرها الصينيون ، فإن التتر يعمرونها أيضا . وقد غمر السيث أوروبا وآسيا ، وتصب الآن جبال سويسرا في مناطقنا الخصبة سيلا غير منقطع من المعمرين يظهر أنه لن ينضب أبدا .

طبعي ، على ما يقولون ، أن يغادر سكان أرض قاحلة تلك الأرض ليستقروا بأحسن منها . هذا حسن جدا . ولكن ، لم كانت هذه الأرض الأحسن ، عوضا عن أن تعج بأهلها هي ، تتسع لغيرهم ؟ أن الخروج من أرض قاحلة يقتضي أننا نكون فيها . لم يفضل كل هؤلاء الناس اذن أن يولدوا فيها ؟ يكاد المرء يظن أن الاراضي القاحلة لا يجب أن تعمر ألا بما يزيد عن طاقة الأراضي الخصبة . ولكننا نرى أن الأمر هو عكس ذلك . ان أغلب الشعوب اللاتينية كانت تعتبر نفسها شعوبا أصلية ⁽¹⁸⁾ ، في حين أن بلاد اليونان الكبرى وهي أخصب بكثير ، لم يكن يقطنها إلا الغرباء عنها . لقد كانت كل الشعوب اليونانية تعترف أنها ترجع في أصلها الى قرى مختلفة ، باستثناء الشعب الذي كانت أرضه أسوأ الاراضي ، ألا وهو الشعب الأتيكي . فقد كان يقول عن نفسه انه شعب أصيل أو ابن نفسه . وأخيرا ، فمن دون أن ننفذ الى غابر الأزمان ، تمكنا القرون الحديثة من ملاحظة حاسمة : فأي مناخ في العالم أشد بؤسا من ذلك المناخ الذي أطلقوا عليه اسم مصنع الجنس البشري ؟

ان التجمعات البشرية هي في الغالب من عمل الطوارئ الطبيعية كالطوفان المحلي أو كاندفاق سيول البحر وانفجارات البراكين وهزات الأرض الكبرى والحرائق التي تضررها الصواعق والتي كانت تهلك الغابات ، ان كل ما كان

أخاف السَّكَّان المتوحَّشين لِأَرْض ما وَشَّتْهُمْ ، قد جمعهم من بعد ذلك لكي يَتَّحدوا في جبر ما اشتركوا فيه من الخسائر . فأخبار مصائب الأرض التي كانت رائجة جيِّداً في الأزمان السَّابِقة ، تبَيَّن لنا ماهي الأدوات التي استخدمتها العناية الإلهية لحمل البشر على التقارب . ولقد انقطعت هذه الحوادث الكبرى وقلت منذ أن أقيمت التجمعات . ولعل هذا الوضع ما يزال قائماً ، فعين المصائب التي كانت جمعت الناس المشتتين ، قد تشتت اليوم أولئك الذين هم مجتمعون .

إن تداول الفصول سبب آخر أعم وأدوم ، لا بدَّ أنه قد كان له نفس المفعول في البلاد ذات المناخات المَرصَّة لهذا الاختلاف . فهاهم السَّكَّان وقد اضطروا إلى التزوُّد بالموثونة ، تحسُّباً للشتاء ، يلجؤون إلى التَّعاون وإلى إقامة ضرب من الاتفاق فيما بينهم ، فعندما يتعذَّر عليهم التَّجوال ، وتوقفهم عنه صرامة البرد ، إذ ذاك يجمعهم القلق بقدر ما تجمعهم الحاجة . فقد كان اللّابونيون المندفون في ثلوجهم ، والاسكيمو وهم أشدَّ الشعوب توحُّشاً ، يجتمعون في كهوفهم شتاء ثم ينقطع تعارفهم صيفاً . فلتريدوهم في تقدِّمهم درجة وفي استنارتهم درجة ، إذن لسوف ترونهم يجتمعون إلى الأبد !

ليست معدة الإنسان ولا أمعاؤه معدَّة هضم اللحم النيء . فإن ذوق الإنسان لا يتحمّله عموماً . وفي ما عدا الاسكيمو وحدهم تقريباً ، وقد كنت أتحدّث عنهم ، فإنَّ المتوحَّشين أنفسهم يشوون لحومهم ، فينضاف إلى استعمال النَّار الضَّرورية لطبخها ، اللذة التي تعطيها النَّار للبصر والحرارة التي يلتذُّ بها الجسم . إنَّ مشهد النَّار ، الذي ينفر الحيوانات ، يجلب الإنسان (19) ، فيجتمع النَّاس حول موقف مشترك ، ويسيرون الولائم ويرقصون : هناك تقرب روابط العادة العذبة الإنسان من نظرائه من دون أن يشعر ، وعلى ذلك الموقد الغالي تشتعل النَّار المقدَّسة التي تحمل أول مشاعر الانسانية إلى أعماق القلوب .

إنَّ العيون والأنهار التي يتفاوت انتشارها في البلاد الساخنة هي نقاط أخرى للإجتماع ، زاد في ضرورتها كون النَّاس أعجز عن الاستغناء عن الماء ممَّا هم عن النَّار . فلهيبيخ خياصة ، وهم أولئك الذين يعيشون من قطعانهم ، يحتاجون إلى

موارد مائية مشتركة ، ونجربنا تاريخ أقدم الأزمنة بأن معاهداتهم وخصوصاتهم قد بدأت هناك ⁽²⁰⁾ . ان سهولة الحصول على المياه يمكن أن تعطل تكون مجتمع السكان في الأماكن المروية جيداً . وعلى العكس من ذلك فقد كان لا بد ، في الأماكن الجافة ، من التعاون على حفر آبار ، وعلى مد قنوات لسقي الماشية . فأنت ترى أن الناس في هذه الأماكن مجتمعون منذ زمان لا نكاد نذكر بدايته ، اذ لم يكن للارض بد من أن تظل مقفرة أو أن يحولها عمل الانسان الى أرض يأوي إليها . ولكن ميلنا الى رد كل الامور الى ما ألفناه يقتضي أن نتأمل فيما قلناه بعض الشيء .

لقد كانت الحالة الأولى للارض تختلف كثيراً عن الحالة التي هي عليها اليوم ، سواء أنظرنا إليها وقد زينتها يد الانسان أو وقد قبحتها . فان ما زعمه الشعراء من عماء في العناصر ، إنما كان سائدا فيما تنبته الأرض . ففي تلك الأزمان البعيدة ، حيث كانت الانقلابات كثيرة الوقوع وحيث كانت طبيعة التربة ، وهيئات الأرض يغيرها ألف طارئ وطارئ ، كان كل شيء ينمو بشكل فوضوي : الأشجار والخضر والشجيرات والحشائش . فلم يكن أي نوع من هذه الأنواع يجد من الوقت ما يسعه ليستولي على أنسب الأراضي له فيضيق فيها الخناق على ما سواه من الأنواع . بل كانت الأنواع كلها تتفارق ببطء ، رويدا رويدا ، ثم كان يطرأ انقلاب يخلط كل الأشياء من جديد .

ان العلاقة التي بين حاجات الانسان وما تنبته الأرض لهي من الوثاقة بحيث يكفي أن تكون الأرض أهلة حتى يستمر كل شيء . ولكن ، قبل أن يتم للأفراد المجتمعين ان يقيموا بأعمالهم المشتركة توازنا بين نباتات الأرض ، فقد كان استمرار تلك النباتات كلها يقتضي أن تتولى الطبيعة وحدها اقامة ذلك التوازن الذي تحفظه اليوم يد البشر . ولقد كانت تحافظ على ذلك التوازن أو تعيده بواسطة انقلاباتها مثلما أن البشر يحافظون عليه ويعيدونه بواسطة تقلباتهم . ان ما لم يكن بعد سائدا بينهم من الحرب ، إنما كان يبدو سائدا بين العناصر . فان البشر لم يعتادوا احراق المدن ، ولا حفر المناجم ولا اقتلاع الأشجار ؛ ولكن الطبيعة كانت تشعل

البراكين وتثير ارتجاجات الأرض ؛ كما كانت نار السماء تلتهم الغابات . لقد كانت الصّاعقة أو الطوفان أو التّبحر تفعل في بضع ساعات ما يفعله اليوم مائة ألف ساعد من الرجال في مدّة قرن . لا أستطيع أن أفهم — على غير هذا الوجه — كيف كان يمكن لهذا النّظام أن يبقى ولهذا التوازن أن يثبت . فلولا ذلك لابتلعت بطول المدّة أكبر الأنواع في النّظامين العضويين أصغرها ⁽²¹⁾ ، ولما أضحت الأرض بعد ذلك مكسوة بغير الاشجار والحيوانات المقترسة ولباد كلّ شيء في النهاية .

ولولا ذلك لفقدت المياه رويدا رويدا من دورانها الذي يحمي الأرض ولا نخطّت الجبال وانخفضت ولأجحفت الأنهار رملا ولا متلأت البحار وامتدّت ومالت كلّ الاشياء من حيث لا تدري الى الاستواء . انّ يد النّاس توقف هذا الانحدار وتعطلّ هذا التطوّر . فلولاهم لتزايدت سرعته ولربّما كانت الأرض الآن تحت المياه . لقد كانت عيون الماء (قبل أن يتولّاهم) العمل البشري أشدّ تفاوتاً في انتشارها وأقلّ اخضاباً للأرض وأعسر ارواء للسكّان . وغالبا ما كانت كذلك تخرج عن مجاريها لأنّ صناعة الانسان لم تكن تحبسها فيها ، فنندفق ذات اليمين وذات الشمال وتغيّر من وجهتها ومن مجاريها وتتفرّع الى عدّة فروع . فكنت تارة تجد أنّها قد نضبت وطورا تجد أنّ الأوعاس تحول دون اقترابك منها . فكانت كما لو لم تكن أبداً ، وكان النّاس يموتون من العطش وهم وسط المياه .

فكم من بلد جافّ لم يكن يسكن ألا بفضل ما جلبه النّاس من مجاري وقنوات من الأنهار : تكاد بلاد الفرس بأكملها لا تعيش ألا بهذا الاصطناع . وشعوب بلاد الصّين كالتمل (في كثيرتهم) بفضل ما فيها من القنوات العديدة . ولولا ما في هولاندا من القنوات لغمرت مياه الأنهار النّاس ، تماما كما كانت تغمرهم سيول البحر لولا (ما يقيمونه من) السدود . وكذلك مصر ، أخصب بلاد الأرض ، فإنّها لا تسكن لولا العمل الانساني : فسهولها الكبرى التي تنعدم فيها الأنهار ، والتي ليس في أرضها ما يكفي من المنحدرات ، لا تملك من الموارد إلا الآبار . فاذا كان أوّل ما يذكر في التّاريخ من الشعوب لم يسكن في الأراضي

الدَّسْمَةُ أو على الشَّوْاطِيء السَّهْلَةِ ، فليس ذلك لأنَّ هذه المناخات الطَّيِّبَةُ كانت مقفرة ولكن لأنَّ سَكَّانَهَا المتعَدِّدين ، لَمَّا كان يمكنهم أن يستغنوا عن بعضهم ، فقد عاشوا مدَّة أطول وهم منزولون في عائلاتهم ، وبدون تواصل . أمَّا في الأماكن الجافَّة التي لم يكن بالإمكان الحصول فيها على الماء إلا بواسطة الآبار فقد كان من الضروري التَّجمع لحفرها أو على الأقلَّ الاتِّفاق على استعمالها . ذلك هو أصل المجتمعات وذلك هو أصل اللُّغات في البلدان السَّاخنة .

هناك انعقدت أولى الرُّوابط بين العائلات ، وهناك تواعد الجنسان أوَّل ما تواعد . لقد كانت الفتيات يأتين لورد الماء للعائلة ، وكان الفتيان يأتون لسقي قطعانهم . هناك طففت العيون التي قد كانت تعرَّدت رؤية نفس الأشياء منذ الصَّبى ، ترى من الأشياء ما هو أحلى . فتأثَّر القلب لرؤية هذه الأشياء الجديدة ، وإذا بميل لم يعهده من قبل جعله أقلَّ توحُّشا ، وإذا به يحسَّ بلذَّة أن لا يكون وحيدا . لقد أصبح الماء وهم لا يشعرون أشدَّ ضرورة ، وتكاثر عطش الماشية فأضحوا يتعجلون الذهاب وأمسوا يأسفون للأوبة . لم يكن ثَمَّة في ذلك الزمن السعيد ما يشير إلى الساعات ولم يكن ثمة ما يدعو لحسابها . لم يكن للزمن من مقياس إلا المرح أو القلق . هناك تحت شجرات سنديان عجائز قهرت السنين ، شباب متلهف راح يتنسى وحشيَّته رويدا رويدا . لقد كانوا يتراوضون شيئا فشيئا . فتعلموا الإفصاح عن مقاصدهم لأنهم سعوا إلى أن يفهموها . هناك انعقدت أولى الاحتفالات فكانت الأرجل تنطَّ من الفرحة . لم تعد الإشارة العجلى تكفيها ، فرافقها الصوت بنبرات هائلة ، وامتزج الشوق باللذَّة عندهم : ها هنا كان مهد الشعوب الحقيقي ، ومن صفاء مياه العيون النقية سرت نيران الحب الأولى .

ولكن : هل كان النَّاس قبل هذا الزَّمان يولدون من التُّراب ؟ وهل كانت الأجيال تتوالى من دون أن يجتمع الجنسان ومن دون أن يتفاهم النَّاس ؟ كَلَّا : فقد كان ثَمَّة عائلات ولكن لم يكن ثَمَّة أم أبدا . كان ثَمَّة لغات أهليَّة ولكن لم يكن ثَمَّة أبدا لغات شعبية ، كان ثَمَّة زواج ولكن لم يكن ثَمَّة حبَّ أبدا . لقد كانت كل عائلة تكتفي بنفسها ، وتبقى من دون أن تختلط بغير دمها . فالاطفال

الذين يولدون من نفس الآباء ، كانوا ينمون معا ويبتدون زويدا رويدا الى طرق في التفاهم . لقد كان الجنسان يتمايزان بتقدم العمر وكان الميل الطبيعي كافيا لجمعهما . كانت الغريزة تحل محل التفضيل وكان الناس يتحولون الى زوج وزوجة من دون أن ينقطع كونهم أخا وأختا (22) . لم يكن في كل هذا من متوقّد المشاعر ما يكفي لحلّ عقال اللسان ولا ما يستحثّ نبرات الأهواء المتلهفة ليجولها الى مؤسسات . وعلى هذا فليُقسّم ما يمكن أن نقوله عن الحاجات التادّرة والمتأثّية التي قد كان يمكنها أن تحمل بعض الناس على الانسجام في أعمال مشتركة . فهذا يشرع في بناء حوض لعين الماء وذاك يكمله من بعده . وغالبا ما كان ذلك يتمّ من دون أن يحتاج الى أيّ اتفاق ، بل وأحيانا من دون أن يرى بعضهم بعضا . وباختصار فلقد كان لا بدّ في المناخات المعتدلة وفي الأراضي الخصبة من تعبئة العواطف الجميلة بكلّ حيويّتها حتّى يُشرع في انطاق السكّان . ولما كانت اللغات الأولى بنات اللذة لابنات الحاجة ، فقد ظلّت طويلا تحمل طابع الأب ، ولم تمنح نبرتها المغرية إلّا بأحاء العواطف التي ولّدتها ، حينما انتشرت بين الناس حاجات جديدة أجبرت كل امرئ على ان لا يفكر الا في نفسه وعلى أن ينزوي بقلبه الى باطن ذاته .

الفصل العاشر

— تكوّن لغات الشمال —

يصبح كلّ الناس بمرور الزمن متشابهين ، ألا أنّ نظام تقدّمهم يختلف . ففي المناخات الجنوبيّة حيث الطّبيعة المعطاء ، تتولّد الحاجات من الأهواء : أمّا في البلاد الباردة حيث الطّبيعة الضنيّة ، فتتولّد الأهواء من الحاجات . فتتطبع اللّغات ، سليلات الحاجة البائسة ، بطابع منشئها الخشن .

ومهما كان صبر الانسان على تقلّبات الهواء وعلى البرد والقلق بل وعلى الجوع ، فثمة رغم ذلك حدّ تنهزم عنده الطّبيعة (البشريّة) . فما كان من الأشياء المعرضة إلى هذه المحن القاسية ، اضمحل ، وما بقي نما واشتدّ . ليس ثمة وسط بين القوّة والموت . وهذا هو السبب فيما للشعوب الشماليّة من القوّة . فإنّ ذلك لا يعود الى المناخ بالدرجة الاولى ، بل الى أنّ المناخ لم يصير إلاّ على الأقوياء منهم . ولا عجب في أن يحتفظ الاطفال بما لأبائهم من البنية الطّيبة .

وأنا لرى من مجرد ما سبق أنّه لا بدّ أن يكون للرّجال الاقوى أعضاء أقل رهافة من أعضاء غيرهم . وأصوات أغلظ وأثخن من أصوات غيرهم بل وأي فرق

عندهم بين تغايرات الصوت المؤثرة النابعة مما يعتمل في الروح وبين ما تستصرخه الحاجات الطبيعية من الأصوات؟ ففي هذه المناخات حيث يخيم الموت على كل الأشياء على امتداد تسعة اشهر من السنة وحيث الشمس لا تبعث الدفء في الهواء بضعة أسابيع إلا لكي تشعر الناس بما حرموا منه من الخيرات، فتزيد في شقائهم؛ وفي هذه الأماكن التي لا تمنح الأرض فيها شيئا إلا على قدر العمل، وحيث ينبوع الحياة يبدو مستقرًا في السّواعد أكثر ممّا هو مستقرّ في القلب ، ما كان يخطر للنّاس أن يستعذبوا غير ما عندهم من الرّوابط ألا نادرا ، بل كانت روابطهم مقتصرة على دوافعها الحسيّة . فاذا الصّدفة اختيار واذا الاسهل هو الافضل واذا الراحة التي تغذي العواطف قد حل محلها العمل الذي يكتبها . فلقد كان لزاما على المرء أن يفكر في العيش قبل أن يفكر في رغد العيش . ولما كانت حاجة الناس بعضهم إلى بعض أفلح في جمعهم من العاطفة، فان المجتمع لم يتكون إلا بالصناعة : انّ خطر الموت الدائم لم يكن يسمح لهم بأن يكتفوا بلغة الإشارة . فان أوّل ما تلفظوا به من العبارات لم يكن « أحبوني » ولكن « ساعدوني » .

فهاتان الكلمتان تنطقان على تشابههما بنبرة مختلفة ، اذ ما كان على المرء أن يحسّس غيره بشيء ، بل كان عليه أن يسمعه كلّ شيء . لم يكن الأمر اذن متعلّقًا بالطاقة بل كان متعلّقًا بالوضوح . لقد عوّضوا ما لم يكن القلب يعطيه من التبر بمقاطع متينة ومحسوسة . فان وجد في شكل اللّغة بعض انطباع طبيعي ، فلقد كان يزيد فيما لها من الحشونة .

وفعلا فإنّ الشماليين ليسوا بدون عواطف . ولكنّ ما لهم منها من جنس مختلف . فالعواطف في البلدان الساخنة عواطف شعبة مرتبطة بالحبّ والتعومة : فلا يكاد يبقى على السّكان شغل من فرط ما توفّره لهم الطّبيعة . فلا يكاد الآسيويّ يظفر بالنساء والرّاحة حتّى يشعر بالبهجة . أمّا في الشّمال حيث يكثر الاستهلاك على أرض قاسية . فإنّ أناسا لهم كلّ تلك الحاجات يسهل اضجارهم ، ويقلقهم كلّ ما يفعل حولهم . وأنهم لفرط ما كان عيشهم عسيرا ليزدادون تمسّكا بالقليل الذي لهم بقدر ما يزداد فقرهم . فان أنت اقتربت منهم ،

فقد اعتدیت علی حیاتهم . ذلك مصدر ما لهم من المزاج العصبي الذي ما أسرع
أن ينقلب إلى حنق علی كل ما یجرحهم . وهكذا فإن أقرب أصواتهم إلى الطبیعة
أصوات الغضب والتوعد ، ودائما ما تُصاحب هذه الأصوات مقاطع قوية تجعلها
خشنة ومدوية .

الفصل الحادي عشر

تأملات في هذه الاختلافات

تلك هي في رأيي أعمّ الأسباب الطبيعية للفرق الذي يخص اللغات البدائية .
فلغات الجنوب لا بدّ أنها كانت حيّة ورنانة ونابرة وبلغية وكثيرة الغموض من فرط
متانتها . أمّا لغات الشمال فلا بدّ أنها كانت صماء خشنة ، مقطعة وحادة ورتيبة
وواضحة من فرط ما فيها من الكلمات لا من حسن تركيبها . وما يزال في اللغات
الحديثة برغم كونها قد عجنّت وأعيد صهرها مائة مرة ومرة ، بعض هذه الفروق .
فالفرنسية والانجليزية والألمانية هي اللسان الخاص الذي يتكلم به أولئك الذين
يتعاونون ويفكرون فيما بينهم بهدوء ، أو يتكلم به أولئك المتحاملون الذين
يغضبون .

ولكن رسل الالهة الذين يكشفون عن الألغاز المقدّسة والحكماء الذين يهبون
القوانين للشعب ، والقواد الذين يجرون الجمهور ، لا بدّ أن يتكلموا العربية أو
الفارسية (23) . فلغتنا مكتوبة أفضل مما هي منطوقة . وانه ليلتذّ بقراءتنا أكثر مما
يلتذّ بسماعتنا . وعلى العكس من ذلك فان اللغات الشرقية تمقدّ إذا ما كانت

مكتوبة حيويتها وحرارتها . فليس المعنى الا نصف كامن في الكلمات ، وكل قوته انما هي في النبرات . ان من يحكم على عبقرية المشاركة من خلال كتبهم كمن يريد أن ينظر الى جثة الانسان ليرسم صورته .

ان الحكم الصائب على أفعال الناس يقتضي أن ننظر الى هؤلاء في كل علاقاتهم . وهو ما لم نتعلم أبدا أن نفعله . فنحن عندما نضع أنفسنا موضع الآخرين ، فاننا نضع أنفسنا بما طرأ علينا من التغير لا بما يجب أن يطرأ عليهم . وعندما نظن أننا نحكم عليهم بالعقل ، فاننا في الواقع لسنا الا مقارنين لأحكامهم المسبقة بأحكامنا المسبقة . فانك لترى الذي له بعض معرفة باللغة العربية يبتسم اذ يتصفح القرآن ، ولعمري ، إنه لو أنصت الى محمد يقرأ بنفسه في تلك اللغة البليغة والموقعة ، وبذلك الصوت الجمهوري المقنع الذي كان يستهوي الأذن قبل أن يستهوي القلب ، ولو أنصت اليه اذ لا ينفك ينفث في حكمه نبرة وحماسا ، لسجد على الأرض من الرهبة ثم لناداه ألا أيها النبي الأعظم ، الا يا رسول الله خذنا الى المجد والشهادة : نريد أن نغلب أو أن نموت في سبيلك . ان التعصب لبيدو لنا دائما مضحكا ، اذ ليس له بيننا صوت يعبر به عن نفسه . وحتى متعصبونا فانهم ليسوا بمتعصبين حقيقيين ، ان هم الا نصابون او مجانين . أما لغاتنا فليس فيها الا صيحات يرسلها عبيد الشيطان بدلا عن انعطافات يشدو بها من ألهمهم الرحمن .

الفصل الثاني عشر

أصل الموسيقى ونسبها

لقد تكونت أولى المقاطع أو الأصوات الأولى مع التصويرات الأولى ، وذلك بحسب جنس الهوى الذي أُملى هذه أو تلك . فالغضب يستثير صيحات التوعد التي ينطق بها اللسان والحنك . ولكن صوت الحنان أعذب من ذلك ، فهو تغاير تحدثه الزردمة بحيث يصبح صوتاً ؛ غير ان نبراته تكثر أو تقل وانعطافاته تحتد أو تخفت بحسب الشعور الذي ينضاف اليها . وهكذا يتولد الايقاع وتتولد الاصوات مع المقاطع . ان الهوى ينطق كل الاعضاء ويترن الصوت بكل بريقها . وهكذا فأبيات الشعر والأناشيد والكلام من أصل مشترك . فحول عيون الماء التي تحدث عنها كانت الخطب الأولى هي الأغنيات الأولى . لقد ولدت الترجيعات الدورية والموزونة للايقاع والانعطافات النغمية للنبرات ، الشعر والموسيقى مع اللغة . بل ان كل ذلك ما كان الا اللغة عينها في هذه المناخات الطبيعية والأزمان السعيدة حيث انحصرت الحاجات الأكيدة التي كانت تتطلب مساعدة الغير ، في تلك التي كان القلب يولدها .

ان القصص الأولى والخطب الأولى والنواميس الأولى قد كانت شعرا . فلقد وجد الشعر قبل النثر . ذلك ما حدث فعلا لان الاهواء تكلمت قبل العقل . وكذلك كان شأن الموسيقى . فلم يكن ثمة في البداية من موسيقى الا النغم ولا من النغم غير ما يحدثه الكلام من تنوع الصوت . لقد كانت النبرات تكون النشيد والكميات تكون الوزن وكان الناس يتكلمون بالأصوات والايقاع بقدر ما كانوا يتكلمون بالمقاطع والتصويّات ويقول سترابون⁽²⁴⁾ عن الكلام والغناء أنّهما كانا نفس الشيء فيما مضى . ثم يضيف ان ذلك يبيّن ان الشعر هو مصدر البلاغة⁽²⁴⁾ . لقد كان عليه أن يقول إن هذا وتلك قد كان لهما نفس المصدر، وإنّهما لم يكونا في البداية الا شيئا واحدا . أما عن الوجه الذي انتظمت به المجتمعات الأولى ، فهل كان من العجب ، أن أولى القصص وأولى النواميس قد نظمت شعرا ؟ وهل كان من العجب أن أوّل النحاة قد أخضعوا صناعتهم الى الموسيقى ، وأنهم كانوا في الوقت نفسه أساتذة في كلتا الصناعتين ؟⁽²⁵⁾ .

ان لغة ليست لها إلا المقاطع والتصويّات لا تملك إذن إلا نصف ثروتها . صحيح انها تؤدي افكارا . ولكنها إذا ما أرادت أن تؤدّي مشاعر أو صورا احتاجت مع ذلك الى ايقاع وأصوات اي الى نغم . هو ذا ما كان متوقفا في اللغة اليونانية وما يعوز لغتنا .

إنّنا ما نزال في عجب من الآثار الهائلة التي خلّفها البلاغة والشعر والموسيقى بين اليونانيين . فنحن لا نفهم هذه الآثار لأننا لا نحسّ بمثلها . ولعل كل ما نظفر من انفسنا بأن تطاوعنا اليه أمام تأكّد الشهادات بذلك هو أن نتظاهر بتصديقها مجاملة لعلمائنا⁽²⁶⁾ .

ولقد عمد بورات ، اذ ترجم على قدر طاقته بضعة قطع من الموسيقى اليونانية الى ترقيمات موسيقانا ، الى أن يشرف بكل بساطة ، على عزفها في أكاديمية الآداب ، وتصابير على سماعها رجال الأكاديمية . واني لأقدر كلفة هذه التجربة في بلد لا يمكن أن تفك رموز موسيقاه أية أمة أخرى . فلتعرضوا على من أردتم من الموسيقيين الأجانب ان ينجزوا عزفا منفردا للأوبرا الفرنسية . اتحدّكم ان تفهموا

شيئا من ذلك . ومع ذلك فهؤلاء الفرنسيون هم بالذات أولئك الذين أَدْعَوُا القدرة على الحكم على بعض أناشيد بيندار التي مرَّ على وضعها موسيقياً ألفا سنة .

لقد قرأت أن الهنود في أمريكا ، كانوا ، فيما مضى ، عندما يشاهدون المفعول العجيب للأسلحة النارية ، يلتقطون من الأرض حَبَات بندقية الفتيلة ، ثم يرمونها بأيديهم وهم يحدثون بأفواههم دويا كبيرا ، فكانوا يعجبون من أنهم لم يقتلوا أحدا . ان خطباءنا وموسيقيينا وعلماءنا ليشبهون هؤلاء الهنود . العجب ليس أننا لم نعد نفعل بموسيقانا ما كان يفعله اليونانيون بموسيقاهم بل لعل العجب يحدث على العكس من ذلك لو أننا بمثل هذه الآلات المختلفة نفعل عين ما فعلوا .

الفصل الثالث عشر

في التغم

ما من أحد يشكّ في أن الانسان تغيّره حواسّه . ولكن عدم تمييزنا بين التغيرات يجعلنا نخلط بين أسبابها . فان ما ننسبه من السلطان للاحاساس قليل بل قليل جدا . فنحن لا نرى أنها غالبا ما تؤثر فينا لا كاحساسات فقط ولكن أيضا كعلامات أو صور ، وأن آثارها الأدبية لها أيضا أسباب أدبيّة . فمثلا أن المشاعر التي يثيرها فينا الرسم لا تأتي أبدا من الألوان ، فان سيطرة الموسيقى على أرواحنا ليست أبدا من عمل الأصوات . فان ألوانا جميلة ومحكمة التدرّج تروق النظر . ولكن هذا الالتذاذ هو التذاذ بالاحساس فقط ، وإتّما التصوير والمحاكاة هما اللذان يعطيان هذه الألوان حياة وروحا . فالعواطف التي تعبر عنها تلك الألوان هي التي تؤثر في عواطفنا ، والأشياء التي تمثلها تلك الألوان هي التي تحدث فينا انفعالات . فليس لاهتمامنا وشعورنا ارتباطا بالألوان . فمعالم اللوحة الفنية المؤثرة ، تؤثر فينا ولو كانت في صورة منسوجة . فلتحذفوا هذه المعالم من اللوحة ، إذن لن يكون للألوان بعد ذلك أيّ مفعول .

ان فعل النغم في الموسيقى هو عين فعل التصوير في الرسم ، إذ هو الذي يبرز المعالم والأشكال التي ليست التآلفات والأصوات إلا ألوانها . وقد يعترض بعضهم بأن النغم ليس إلا سلسلة من الأصوات . لا شك في ذلك ولكن التصوير ليس أيضا الا انتظاما للألوان . فالخطيب يستخدم الخبر ليدون مخطوطاته . فهل سنقول لذلك أن الخبر هو محلول ببلغ جدا ؟

فلتصوروا بلدا لا يكون للناس فيه أي فكرة عن التصوير ، بل يكثر فيه من يظن أنه قد امتاز في فن الرسم لأنه يقضي حياته وهو يخلط الألوان ويمزج بعضها ببعض ويوفقها . سيعتبرون رسما تماما مثلما نعتبر موسيقى اليونانيين . وعندما نحدّثهم عن التأثير الذي تتركه فينا اللوحات الجميلة وعمّا في تعشق لوحة مثيرة من الفتنه ، فسرعان ما سيتعمق علماءهم في المسألة فيقارنون ألوانهم بألواننا ، وينظرون فيما إذا كان اللون الأخضر عندنا أرق ممّا عندهم أو فيما إذا كان اللون الأحمر عندنا أشدّ بريقا . سيبحثون عن تآلفات الألوان التي يمكن أن تبكي وعن تلك التي يمكن أن تغضب ؛ كذلك ، سيعمل الـ « بواريت » على ان يجمعوا فوق رداء مهترىء خرقا مشوهة من لوحاتنا ثم يتساءلون في دهشة عن العجب في هذه الألوان .

فاذا ما بدأ الناس في بعض الأمم المجاورة في رسم بعض الخطوط أو بعض الملامح من التصوير ، أو بعض الأشكال التي ما تزال غير مكتملة ، فان كل ذلك سيعتبر مجرد خريشة أو مجرد رسم شاذّ وباروكي . ولسوف يتمسك حفاظا على الذوق السليم بهذا الجمال البسيط الذي قد لا يعبر بحق عن شيء ، ولكنه يعرض على الناس تدرجات لامعة الجمال وألواحا محكمة التلوين وتدرجا لا ينتهي من الاصباغ التي لا ملامح فيها لشيء .

وأخيرا ، فلقد يتوصل بمفعول التقدم الى تجربة المنشور . سيسارع ساعتها بعض مشاهير الرسامين الى ان يؤسس على ذلك نسقا رائعا . سيقول لهم ، ان التفلسف الحقيقي يقتضي ، ايها السادة ، أن نرتفع الى الأسباب الطبيعية . هو ذا تحلل الضوء . هي كل الألوان الأولية . هي ذي علاقاتها ونسبها . تلك هي

مبادئ اللذة الحقيقية التي يعطيكم إيّاها الرسم . ان كل هذه الكلمات الرهيبة ، كلمات « التصوير » و « التمثيل » و « الشكل » ، هي محض تدجيل يتعاطاه الرسامون الفرنسيون ، إذ يظنون أنهم بمحاكاتهم يؤلّدون ما لست أدري من الحركات في النفس في حين نعرف أنه ليس فيها إلا إحساسات . يقولون لكم أشياء عظيمة عن لوحاتهم ، ولكن انظروا الى ألوانى .

ولسوف يواصل قائلا ان الرسامين الفرنسيين ربّما لاحظوا قوس قزح ، ولعل الطبيعة قد غرست فيهم بعض الميل الى التدرج ، وقد تكون فطرتهم على مزج الألوان . أما أنا فقد أظهرت لكم المبادئ الكبرى والحقيقية للفنّ ؛ فما بالكم بالفنّ ! بل وبكل الفنون وكل العلوم يا أيّها السادة ! ان تحليل ألوان المنشور وحساب انكسارات ضوئه يمكنناكم من ادراك النسب الحقيقية الوحيدة التي هي موجودة في الطبيعة . كما يمكنناكم من قانون كل النسب . ولكن كل شيء في الكون ما هو الا نسبة . إذن فالمرء يعرف كل شيء عندما يحذق الرسم ويعرف كل شيء عندما يحذق الملاءمة بين الألوان .

فما عسى أن يكون موقفنا من ذلك الرسام الذي ينساق من نقص شعوره وذوقه الى مثل هذا التفكير وإلى أن يقصر حمقا ما يجلبه لنا الرسم من لذة على المظهر الحسّي من فنه ؟ وما عساه يكون موقفنا من ذلك الموسيقيّ الذي يذهب به الظنّ من فرط ما امتلأ بمثيلات هذه الأحكام المسبقة الى اعتبار تناسب الانغام وحده مصدر ما تتخلّفه فينا الموسيقى من عظام الآثار ؟ لنرmin بالأول إلى أخشاب البيوت يزيّنها ، ولنحكمنّ على الثاني بأن لا ينجز الا الأوبرات الفرنسية .

ولما لم يكن الرسم فن التوفيق بين الألوان بشكل يروق النظر ، فان الموسيقى ليست كذلك فن التوفيق بين الأصوات بشكل يروق الأذن . ولو لم يكن ثمة إلا ذلك لما كانتا الا في عداد العلوم الطبيعية لا في عداد الفنون الجميلة . فالمحاكاة وحدها هي التي ترفعهما الى هذه المنزلة . ولكن ما الذي يجعل من الرسم فن محاكاة ؟ انه التصوير ! وما الذي يجعل من الموسيقى فن محاكاة آخر ؟ انه النغم .

الفصل الرابع عشر

في التّصاوت

ان جمال الأصوات طبيعي ومفعولها حسّي صرف . فهو ينتج عن تظافر مختلف جزئيات الهواء التي يحركها الجسم المصنّوت وتحركها كل المنازل التامة التي ينقسم إليها الى ما قد لا ينتهي . ويعطي كل ذلك معا احساسا طبيّا . فكل من في الكون سيلتذّن بسماع أصوات جميلة ولكنّ لذّتهم لن تكون لذّة كبرى إذا ما كانت لا تحركها انعطافات نغميّة معروفة لديهم ، وسوف لن تتحول تلك اللذة الى بهجة حقيقية . فان الأذن ستجد أعذب الأناشيد عندنا رديقة إذا هي لم تألفها . فتلك لغة لا بدّ أن يكون معجمها بين أيدينا .

وأما حال التّصاوت ، فهو في حدّ ذاته أسوأ من ذلك الحال . فهو لكونه لا يحوي من الجمالات الا الاصطلاحى ، لا يطرب الآذان التي لم تألفه . فلا بدّ أن يكون للمرء تعود كبير عليه حتّى يحس به ويتذوّقه . فالآذان الخشنة لا تجد في ما لنا من التّصاوت إلا دويّا ، ذلك أنه ليس من العجب أن ينقطع الالتذاذ الطبيعي عندما تتغيّر النسب الطبيعية .

ويحتوي الصوت (عموما) على كل الأصوات التصاوتية الملازمة له وذلك في نسب من القوة والمسافات لا بد أن تكون بينها لكي تعطي أكمل تصاوت لذلك الصوت . فلتضيفوا إليها الفاصلة الثلاثية أو الفاصلة الخماسية أو أي تساوق صوتي آخر ؛ فانكم لا تضيفونها بل تضاعفونها . تبقون على نسبة المسافة ولكنكم تغيرون نسبة القوة . وعندما تشددون تساوقا صوتيا دون التساوقات الأخرى فانكم تكسرون التناسب . تريدون ان تفعلوا خيرا من الطبيعة ، فما تفعلون الا أقبح منها . فإذا انكم وذوقكم قد أفسدها فن لا تفهمونه ، فليس ثمة بالطبع من تصاوت غير التصادي .

ويزعم السيد رامو أن الأصوات الحادة إذا ما كانت على قدر ما من البساطة ، فهي توحى بصفة طبيعية بما يقابلها من الأصوات الغليظة ، وأن رجلا له أذن مستقيمة وغير متمرسه سينشد بصفة طبيعية هذا الصوت الغليظ . ان هذا هو حكم مسبق نجده عند الموسيقيين ، وتكذبه كل التجارب . فان من لم يسمع قط لا صوتا غليظا ولا تصاوتا لن يجد من تلقاء نفسه لا هذا التصاوت ولا ذلك الصوت . وليس ذلك فقط ، بل سوف لن تعجبه إذا ما أسمعناه اياها وانه لسوف يفضل التصادي البسيط كثيرا .

وأتى يمكننا مهما أنفقنا ألف سنة في حساب نسب الأصوات وقوانين التصاوت أن نجعل من هذا الفن فن محاكاة ؟ فأين مبدأ هذه المحاكاة المزعومة وما الذي يعبر عنه التصاوت ثم ما الذي يجمع بين تسويات الأنغام وعواطفنا ؟ فلنطرح نفس هذا السؤال عن النغم ، إذن سيأتينا الجواب من تلقاء نفسه . فهو في ذهن القراء مسبقا . ان النغم في محاكاته لانعطافات الصوت يعبر عن الأثبات وعن صيحات الألم أو الفرحة وعن التواعدات وعن التأوهات . فكل علامات العواطف الصوتية من اختصاصه . فهو يحاكي نبرات اللغات ويحاكي التراكيب التي تتناسب في كل لسان مع حركات معينة للنفس . ان النغم لا يحاكي فقط بل يتكلم . ولغته التي لا مقاطع فيها ولكنها حية حارة متلهفة فيها من الطاقة مائة مرة أكثر مما في الكلمة نفسها . ها هنا مولد ما للمحاكاة

الموسيقية من قوة . ها هنا مولد ما للغناء على القلوب الحساسة من سلطان وقد يمكن أن يكون للتصاوت بعض القسط في ذلك ، بما يربطه في بعض الأنساق من تسلسل الأصوات ببعض قوانين الانتقال من نغمة إلى أخرى ، ويتقوم النبرات وباشهاد الأذن وتحسيسها بتلك الاستقامة وبتقريب رائع الانعطافات وتثبيتها على مسافات متساوية ومتصلة . ولكنه بما يضعه من العوائق أمام النغم يجزّده من الطاقة ومن التعبير . فيمحو النبرة المثلثة ويعوّضها بالمسافة التصاوتية ويخضع الى مقامين اثنين فقط أناشيد قد كان يمكن أن يكون لنا منها بقدر ما ثمة من النبرات الخطائية ، ويمحو ويطمس أعدادا من الأصوات أو من المسافات التي لا تدخل في نسقه . وباختصار فانه من فرط ما يفصل بين الغناء ، والكلمة يجعل هاتين اللغتين تتصارعان وتعارضان وتتجادلان من كل خصائص الحقيقة . فلا يمكنهما أن تجتمعا في موضوع مؤثر إلا ويكون ذلك أمرا مضحكا . ذلك هو السبب الذي جعل الجمهور يعتبر أن التعبير عن العواطف المتينة والجدية بالغناء أمر سخيف . لأنه يعرف أن هذه العواطف لا تجد في لغاتنا ما يعبر عنها من الانعطافات الموسيقية ، وأن رجال الشمال كالتّم لا يموتون وهم يغنون .

ان التصاوت وحده غير كاف حتّى بالنسبة للتعبير التي لا تبدو تابعة إلا له . فالرّعد وخرير المياه والرياح والعواصف لا يمكن ان تؤدّي بمجرد تسويات . ومهما حاولنا فان الدّوي وحده لا يعني شيئا بالنسبة للدّهن . لا بدّ أن تتكلم الأشياء لكي نفهمها . لا بدّ دائما في كل محاكاة أن يعوّض نوع من الكلام صوت الطبيعة . يخطئ الموسيقي الذي يريد أن يؤدّي دويا بدوي . وهو لا يعرف من فنه لا القليل ولا الكثير ، بل يحكم عليه بدون ذوق وبدون دراية . فلتعلّموه أنه يجب عليه اداء الدويّ بالغناء ، وأنه إذا ما أراد أن يجعل الضفادع تنفق فلا بدّ له أن يجعلها تغني ، إذ لا يكفيه أن يحاكي بل لا بدّ له أن يؤثر في الناس وأن يعجبهم والا لم تكن محاكاته الشاحبة شيئا ولم تحدث أي أثر لأنها لم تجلب أي اهتمام .

الفصل الخامس عشر

في أن أحرّ احساساتنا غالبا ما تؤثر فينا بواسطة انطباعات أدبيّة

ما دام الناس لا يقبلون على اعتبار الاصوات الا من حيث الاهتزاز الذي تهتز له اعصابنا، فانهم لن يدركوا المبادئ الحقيقية للموسيقى ولسلطانها على القلوب. فالاصوات داخل النغم لا تؤثر فينا كأصوات فقط ولكن كعلامات لانفعالاتنا ولمشاعرنا . فهي هكذا تثير فينا الحركات التي تعبّر عنها والتي نجد صورتها فيها . واننا لنلاحظ بعض هذا المفعول الأدبي حتى عند الحيوانات . فنباح كلب يجرّ نباح كلب آخر . وإذا سمعني قطي أحاكي عواء ، رأيته لحينه منتبها محتارا ومضطربا ، فلا يدرك أنني أنا قلّدت صوت نظيره حتى يقعد ويطمئن . لم كان هذا الفرق في الانطباع ما دام لم يكن في اهتزاز الحبال الصوتية فرق ، وما دام هو نفسه قد اغترّ بذلك منذ البداية ؟

إذا لم تكن السلطة القصوى التي لاحساساتنا علينا راجعة لأسباب أدبيّة فلم كنّا إذن حسّاسين بهذا القدر إزاء انطباعات لا معنى لها عند الهمج ؟ ولم لم تكن أبلغ قطعنا الموسيقية غير دوى أجوف في أذن كرايبي ؟ هل أعصابه من طبيعة

مخالفة لطبيعة أعصابنا ؟ لم لا تهتزّ مثلما تهتزّ أعصابنا ، ولم كانت هذه الاهتزازات تؤثر في البعض بهذا القدر في حين يتضاءل تأثيرها في البعض الآخر الى هذا الحد ؟

يستدلّ على السلطة الطبيعية للأصوات ببرء وخزات الرتلاء . وهذا المثال يبرهن على العكس تماما ، إذ أن الأصوات التي يستوجبها شفاء كلّ أولئك الذين لسعتهم هذه الحشرة ليست أصواتا في المطلق ولا هي عين الألحان . بل لا بدّ لكلّ واحد منهم من بعض الألحان من نغم يعرفه ومن جمل يفهمها . لا بدّ للايطالي من ألحان ايطالية وللتركي من ألحان تركية فكل واحد من الناس لا يفعل بغير ما يعرفه من النبرات ولا تهتزّ أعصابه إلا بقدر ما تعدّها روحه لأن تهتزّ . لا بدّ أن يفهم اللغة التي يكلمونه بها حتى يستطيع الكلام أن يحرك سواكنه . ويحكى أن غنائيات بارنبي قد شفين موسيقيا فرنسيا من الحمى . ولكنهن قد كنّ يصبنه بها لو كان من أمة أخرى .

ويمكن أن نلاحظ هذه الفروق عينا في الحواس الأخرى ، وحسّي في أقلّها رهافة . فما أعجب ما يلاحظه المرء من التغيّر في انطباع انسان قد جعل يده وبصره على شيء واحد فإذا به يجده على التوالي حيّا فجامدا . فان الاستدارة والبياض والصلابة وعذوبة الدفء ، والمتانة اللينة والانتفاخ الدّوري ، لا تعطيه ملمسا ليّنا بلا طعم ، لولا أنه يعتقد أنه يلمس قلبا مليئا بالحياة يخفق ويدقّ تحت كلّ ذلك .

واني لا أعلم من بين الحواس كلّها إلا حسّا واحدا لا علاقة له بالخلق أصلا : وهذا الحسّ هو الذّوق . ولذلك لم يكن الشره رذيلة مهيمنة الا عند أولئك الذين لا يحسّون شيئا .

فعلى من يريد التفلسف في قوّة الاحساسات أن يبدأ بأن يفصل عن الانطباعات الحسية الصرفة الانطباعات العقلية الأدبية التي ترد علينا بطريق الحواس التي لا تكون الحواس الا أسبابها العارضة . ولتخاش الوقوع في الخطأ

التمثل في أن يسند للأشياء الحسيّة سلطانا ليس لها أو سلطانا قد ورد عليها ممّا
تمثله لنا من انفعالات النفس . للألوان والأصوات كتمثيلات وعلامات نفوذ كبير
علينا ، ولها كمجرد موضوعات للحس نفوذ ضئيل . فقد تلهيني حيناً
تسلسلات من الأصوات أو من التسويات . أما أن تعجبني أو أن تستهويني ،
فذلك يقتضي ان تعرض علي هذه التسلسلات شيئاً ما ، لا هو صوت ولا هو
تسوية ، بل شيء يؤثر في رغم أنفي . فحتى الأغاني التي ليس فيها إلا الجمال مملّة
إذا لم تكن معبّرة عن شيء ، إذ ليست الأذن هي التي تحمل البهجة الى القلب
بقدر ما ان القلب هو الذي يحمل البهجة إلى الأذن . واني لأظنّ أننا لو توسّعنا
أكثر في هذه الأفكار ، لتجنّبنا الوقوع في الكثير من البراهين الحمقاء المتعلقة
بالموسيقى القديمة . ولأكوننّ وأما إن لم تصبح الفلسفة وبالا على الذوق السليم
وعلى الفضيلة معا في هذا القرن الذي يجتهد فيه الناس في أن يعتبروا كل أفعال
الروح مادّية وفي أن يجردوا المشاعر الانسانيّة من كل خلق .

الفصل السادس عشر

في التناسب الكاذب بين الألوان والأصوات

لم تغادر الملاحظات الفيزيائية عند اعتبارها للفنون الجميلة أي لون من ألوان العيب . فلقد عثروا في تحليل الصوت على نفس النسب التي في تحليل الضوء . فتشبتوا حينهم في حماس بهذا التناسب من دون مراعاة للتجربة وللعقل . لقد شوّشت الذهنية النسقية كل الأشياء ، ولما عجز الناس عن أن يخاطبوا الأذان بالرسم ، عمدوا الى مخاطبة العيون بالغناء . لقد رأيت هذا المعرف الذي يتحدثون عنه ، والذي ادّعوا أنه بالامكان أن نستخدمه في اخراج الأصوات الموسيقية بالألوان . ان عدم التفطن الى أن مفعول الألوان كامن في دوامها وإلى أن مفعول الأصوات كامن في تسلسلها ، ليدل على معرفة سيئة جدًا بأحوال الطبيعة .

فالزينة بكل ما تزخر به من المظاهر تنتشر دفعة واحدة على سطح الأرض . وان المرء ليلمح كل شيء من الوهلة الأولى . ولكنه يزداد فتنة بقدر ما يطيل النظر . فلا يطلب منه الا أن يظل مفتونا متأملًا بلا انقطاع .

وأما الصوت فشأنه غير ذلك . فإن الطبيعة لا تحلله أبدا ولا تفصل بين قواسمه : بل تخفيها تحت حجاب التصادي ، أو هي إن فصلتها أحيانا (مثلا قد يحدث) في تغاير نغمات الغناء عند الانسان أو في ترانيم بعض العصافير ، فيجعلها متعاقبة ، واحدة بعد واحدة . انها توحى بالأغاني ولا توحى بالتسويات وتملي علينا أنغاما ولا تملي تصاويا . فالألوان زينة الكائنات الجامدة ، إذ كل مادة فهي ملونة : ولكن الأصوات تشير الى الحركة . فالصوت يشير الى كائن حاس ، والأجسام الحية هي وحدها تغني . ان عزف الشبابة ليس من عمل عازف آلي ، بل هو من عمل عازف قد قدّر نفخ الهواء فيها وحرك أصابعه (على ثقبها) .

وهكذا فلكل حس حقله الخاص به . فحقل الموسيقى هو الزمن ، وحقل الرسم هو المكان . ولذلك فالزيادة في ما نسمعه في آن واحد من الأصوات أو تعدد الألوان واحدا بعد الآخر ، انما هو تغيير لاقتصادها ، واحلال للعين محل الأذن والأذن محل العين .

تقولون : مثلما أن كل لون فهو محدد بزاوية انكسار الشعاع الذي يعطيه ، كذلك فان كل صوت فهو محدد بعدد اهتزازات الجسم المصوت في وقت معلوم . ولما كانت نسب هذه الزوايا هي غير نسب تلك الاعداد ، فان تناسبها واضح . فليكن ! ولكن هذا التناسب من طبيعة عقلية لا من طبيعة حسية ، وليس الشأن متعلقا بذلك . فأولا ، ان زاوية الانكسار محسوسة وقابلة للقياس ؛ وليس ذلك هو شأن عدد الاهتزازات . فالأجسام المصوتة تغير بلا انقطاع من أبعادها وأصواتها ، إذا ما جعلت تحت تأثير الهواء . والألوان فهي تدوم ، وأما الأصوات فتنتطفئ ، وليس لنا يقين أبدا بأن ما تولّد منها هو عين تلك التي انطفأت . زد على ذلك أن كل لون فهو مطلق ومستقل في حين أن كل صوت إنما هو عندنا نسبي ولا يتميز الا بالمقارنة فليس المصوت في حد ذاته أي خاصية تعرفنا به . فهو قرار أو جواب ، غليظ أو رقيق ، بالنظر إلى صوت آخر . وأما في حد ذاته فهو لا شيء من كل ذلك . وكذلك في التسق التصاوتي ، فان الصوت لا يكون بالطبيعة على أي وجه . فهو ليس قراريا وليس غالبا ، وهو ليس

تصاوتيًا وليس أساسيًا ، لأن كل هذه الخصائص ما هي الا نسب ، ولأنه لما كان يمكن للنسق برمته أن ينتقل من القرار الى الجواب ، فان كل صوت يغير من رتبته ومن مكانه داخل النسق ، وذلك كلما غير النسق من درجته . ولكن خصائص الألوان لا تتمثل البتة في نسب . فالأصفر أصفر بقطع النظر عن الأحمر والأزرق . فهو محسوس ومعروف أينما رأيته . وما ان تضبط زاوية الانكسار التي تعطيه حتى نتأكد من أننا سنحصل على نفس الصفرة في كل الأزمان .

ليست الألوان قائمة في الأجسام الملونة ، ولكنها قائمة في الضوء . فرؤيتنا للشيء تقتضي أن يكون مضاء . كذلك تحتاج الأصوات الى ما يحملها ، وتحتاج في وجودها الى اهتزاز الجسم المصوت . وهذا امتياز آخر للرؤية ، لأن الطلوع الدائم للكواكب هو الآلة الطبيعية التي تؤثر فيها ، في حين أن الطبيعة لا تحدث بمفردها إلا عددا قليلا من الأصوات ، ولا بد من كائنات حيّة لاجداث التصاوت ، اللهم الا أن نفترض تصاوت الأكر السماوية .

واننا لنرى مما سبق أن الرسم أقرب من الطبيعة ، وان الموسيقى أشد تعلقا بالصناعة الانسانية . وكذلك فاننا نحس بأن أحدهما أجلب للاهتمام من الآخر ، وذلك بالذات لأنه يقرب الانسان من الانسان أكثر مما يفعله الفن الآخر ؛ ولأنه يمكننا دائما من فكرة عن نظرائنا فغالبا ما يكون الرسم ميتا وجامدا . قد يحملكم الى أعماق صحراء ما . ولكن ما ان تبلغ الى مسامعكم علامات صوتية ما حتى تستشعروا وجود كائن يشبهكم بالقرب منكم . ان هذه العلامات ، إذا ما صحّ التعبير ، اعضاء الروح . وان هي رسمت لكم لوحة من الوحدة فانها تعلمكم بأنكم لستم وحدكم فيها . ان العصفير تغرد ، وأما الانسان فهو وحده يغني . ولا يمكن للمرء أن يسمع الغناء ولا أن ينصت الى السمفونيات الا ليقول لنفسه في الحين أن كائنا حاسا آخر هو هناك بالقرب منه .

وانه لامتياز كبير يتمتع به الموسيقي ، أن يقدر على تصوير أشياء لا يمكن ان نسمعها ، في حين يتعذر على الرسام أن يتصور تلك التي لا يمكن ان نبصرها . وان أكبر آيات فن لا يستمد تأثيره إلا من الحركة أنه يقدر على أن يصنع من

نلك الحركة صورة السكون . فالتّوم وسكون الليل والوحدة وحتى الصمت انما تدخل كلها في لوحات الموسيقى . معلوم أن الدّوي يمكن أن يحدث مفعول الصمت وأن الصمت يمكن أن يحدث مفعول الدّوي ، مثلما يقع عندما يأخذنا النوم على صوت قراءة هادئة ورتيبة ثم نفيق على انقطاعها . ولكن تأثير الموسيقى فينا قد يكون أعمق من ذلك عندما تثير فينا بواسطة حسّ ما عواطف تشبه ما نستطيع أن نشير منها بواسطة حسّ آخر . ولما كان لا يمكن ان تكون النسبة محسوسة إلا أن يكون الانطباع قويًا ، فلقد تعذّر على الرسم لما كان مجردًا من هذه القوّة أن يقلّد الموسيقى بمثل ما تقلّده هي . فلتغطّ الطبيعة كلّها في التّوم ، لن يرقّد الذي يتأمّلها ، وفنّ الموسيقى أن يعوّض صورة الشيء الجامدة بصورة الانفعالات التي تثيرها حضرته في قلب من يتأمّل . فما هو بمقتصر على أن يهزّ مياه البحر وأن يدكي نيران حريق ، وأن يجري مياه الجداول ، وأن ينزل المطر ويستجرف السيول ، ولكنه سيصور الى كل ذلك فظاعة صحراء موحشة ، أو يزيد في كآبة جدران سجن داموسي ، أو يهدّء من العاصفة ، أو ييثّ في الهواء هدوء وسكينة ، فينشر من الأركسترا نسيمًا جديدًا على البساتين . سوف لن يصوّر هذه الأشياء عينها ، ولكنه سيثير في النفس المشاعر التي نحسّ بها عندما نراها .

الفصل السابع عشر

في خطأ من أخطاء الموسيقيين ، مضرّ بفنّهم

انظروا كيف يدعوننا كل شيء الى العودة إلى التأثيرات الأدبية التي تحدّثت عنها . وانظروا مدى ما يخطئ الموسيقيون الذين لا يعتبرون قوّة الأصوات الا من حيث تأثير الهواء واهتزاز الأوتار ، ومدى بعدهم عن ادراك ما تتمثل فيه قوّة هذا الفن . فبقدر ما يقربونه من الانطباعات الحسية يبعدونه عن أصله وينقصون من طاقته الأولية . وعندما تغادر الموسيقى النبرة الخطابية ولا تثبت إلا بالاصطناعات التصاوتية ، فانه يتزايد ما لها من الدوي في الأذن وتتناقص حلاوتها في القلب . لقد سكنت بعد عن الكلام ، وقرينا تسكت عن الغناء ، فلا يكون لها إذ ذاك بكل ما لها من التسويات وما لها من التصاوت أيّ تأثير فينا .

الفصل الثامن عشر

في أنه لم يكن لنسق اليونانيين الموسيقي
أي نسبة إلى نسقنا

كيف حدثت هذه التغيرات ؟ لقد حدثت بموجب تغير طبيعي في خاصية اللغات . فمعلوم أن تصاوتنا هو اختراع قوطي ؛ وإن أولئك الذين يزعمون أن نسق اليونانيين قائم في نسقنا ليسخروا منا . فلم يكن ثمة في نسق اليونانيين من التصاوت بالمعنى الذي عندنا إلا ما كان لازما لتسوية الآلات بحسب تساوقات صوتية كاملة . فإن كل الشعوب التي لها آلات وترية مضطرة إلى تسويتها بواسطة تساوقات صوتية . ولكن الشعوب التي ليس لها هذه الآلات ، لها في أغانيها انعطافات صوتية لا نعتبرها نحن صحيحة لأنها لا تلائم نسقنا ولأننا لا نستطيع ترقيمها . ذلك ما لوحظ في أغاني متوحشي أمريكا ، وذلك ما كان يجب ملاحظته في مسافات مختلفة من الموسيقى اليونانية لو درست تلك الموسيقى بأقل تحيزا لموسيقانا .

لقد اعتاد اليونانيون قسمة رسومهم البيانية إلى رباعيات مثلما نقسم مدوناتنا

الى دواوين . وكانت تلك القسامات عينها تتجدّد عندهم بكل دقة عند كل رباعية ، مثلما تتجدّد عندنا في كل ديوان . وما كان يمكنهم أن يحتفظوا بهذا التماثل لو تعلّق الأمر عندهم بوحدة المقام التصاوتي ، بل وما كان ذلك ليخطر بخيالهم أصلا . ولكن لما كانت المسافات التي يمرّ بها المرء إذ يتكلّم أصغر من تلك يمرّ بها إذ يغني ، فلقد كان طبيعياً أن ينظروا في تجدّد الرباعيات داخل نغمهم الكلامي ، مثلما ننظر في تجدّد الدواوين داخل نغمنا التصاوتي .

ان التساوقات الصوتية الوحيدة التي اعترفوا بها هي تلك التي نسمّيها تساوقات تامّة . فطرحوا من عددها الثلاثيات والسداسيات . لماذا ؟ ان تحليل ذلك هو أنهم لما كانوا يجهلون مسافة البعد الصغير أو على الأقل لما كان ذلك محظور الممارسة عندهم ، ولما كانت تساوقاتهم الصوتية غير معدّلة أصلا ، فلقد كانت كلّ ثلاثياتهم الكبرى زائدة بفاصلة وكلّ ثلاثياتهم الصغرى نازلة بنفس القدر ، وبالتالي فلقد كانت سداسياتهم الكبرى والصغرى تتغير كل واحدة فيما يخصها بنفس الوجه . فليتخيّل المرء الآن ما يمكنه الحصول عليه من مفاهيم التصاوت وما يمكنه اقامته من المقامات التصاوتية بواسطة استبعاد الثلاثيات والسداسيات من عدد التساوقات الصوتية . فلو كانت تلك التساوقات الصوتية التي يقبلونها معروفة عندهم بفعل حسّ تصاوتي حقيقي لجعلوها على الأقلّ ضمنية تحت أغانيهم ، ولأعطى التساوق الصوتي للدرجات الأساسية اسمه لما كانت تلك الدرجات توحى به من الدرجات الابعادية ؛ وهكذا كان يكون لليونانيين أكثر مما لنا من التساوقات الصوتية ولا يكون لهم أبداً أقلّ ممّا لنا . بل لعلّهم كانوا ، إذ يتعرّضون مثلاً إلى الدرجة الغليظة ut sol يستمّون الثنائية ut ré باسم التساوق الصوتي .

ولكن قد يتساءل البعض عن سبب وجود الدرجات الابعادية . سنجيب بأن ذلك راجع الى غريزة تحملنا على أن نختار في لغة ذات نبروشادية أيسر ما فيها من الانعطافات الصوتية . فبين ما تحتاجه الزردمة من التغيرات الكبرى لتصح باستمرار بكبرى مسافات التساوقات الصوتية ، وبين صعوبة تعديل الاداء في ما اشتدّ تعقيده من نسب المسافات الأصغر ، عمد العضو (الناطق) الى وضع

وسط ووقع بطبعه على مسافات أصغر من التساوقات الصوتية وأبسط من
الفواصل : وهو ما لم يمنع مسافات أصغر من تلك من أن تستخدم في ألوان
بلاغية أكثر عاطفية (من الكلام العادي) .

الفصل التاسع عشر

في كيف انخطت الموسيقى

على قدر ما كانت اللغة تستكمل ذاتها ، كان التغم بما يفرض على نفسه من القواعد ، يفتقد من طاقته القديمة من حيث لا يشعر ، وكان حساب المسافات يعرض رقة الانعطافات فهكذا مثلا انقضت ممارسة اللون التجانسي رويدا رويدا . وعندما أصبح للمسارح شكل منتظم ، لم يعد الموسيقيون يغنون فيها إلا على مقالمات موصوفة . وعلى قدر ما كانت قواعد المحاكاة تتعبد ، كانت لغة المحاكاة تتضاقل .

ان دراسة الفلسفة ، وتقدم صناعة البرهان بما حسناه من صناعة النحو ، قد جردا اللغة من تلك النيرة الحارة والعاطفية التي كانت جعلتها في البداية على قدر من الفتنة . فمنذ عصر منياليب وفيلوكسان ، استقل السمفونيون عن الشعراء بعد أن كانوا خلدا لهم وبعد أن كانوا لا يشتغلون إلا تحت اشرافهم وتحت املائهم ان صح التعبير . ان انحلال تلك الرابطة هو ما تشتكي منه الموسيقى بكل تلك

المرارة في احدى مسرحيات فيبيقراطس ، احتفظ لنا منها فلوتاركس بذلك المقطع . وهكذا فعندما لاح أن الموسيقى لم تعد ملتحمة بالقول ، بدأ انزواؤها من حيث لا تدري الى حياة منعزلة ، وأضحت الموسيقى أكثر استقلالاً عن الكلمات . إذ ذاك انقطعت كذلك شيئاً فشيئاً تلك العجائب التي كانت أعطيها عندما لم تكن غير نبرة الشعر وتناغمه ، وعندما كانت تمنح للشعر على العواطف سلطاناً لم تعد الكلمة من بعد ذلك تمارسه الا على العقل . لذلك فما كادت اليونان تمتلئ سفاضة وفلاسفة حتى غاب عن الأنظار الشعراء والموسيقيون العظام . لقد فقد الناس فن التأثير لأنهم اعتنوا بفن الاقناع . ولقد عمد أفلاطون بنفسه ، لفرط غيظه من هوميروس ومن أوريبيد ، الى ذم هذا ولم يقدر على محاكاة ذاك .

وسرعان ما انضاف الى تأثير الفلسفة تأثير العبودية . لقد فقدت اليونان ، وهي في الأغلال ، ذاك القبس الذي لا يبعث الدفء بغير النفوس الحرة ؛ ولم تعد تجد لمذح طغاتها تلك النبرة التي كانت تمدح بها أبطالها . وزاد الاختلاط بالرّوم في انھاك ما بقي للغة من التناغم ومن التبر . فلقد أضرت اللاتينية بالموسيقى بتبنيها لها ، وذلك لأنها لغة أصم من اليونانية وأقل موسيقية منها . كما عكّر ما كان رائجا في العاصمة من الغناء ما بقي منه في الولايات ، وأساءت مسارح روما الى مسارح أثينا . وفي الوقت الذي كان فيه نبرون يغنم الجوائز ، انقطعت جدارة أثينا بها . فإذا التّغم عينه ، قد قسّم على اللغتين ، فأمسى أقلّ ملاءمة لهذه ولتلك.

وأخيرا حدثت الفاجعة التي زلزلت تقدّم الفكر البشري من غير أن ترفع عنه ما ولّده من الرذائل : لقد فقدت أوروبا ، عندما اجتاحتها الهمج واستعبدها الجهلة ، فقدت في الآن نفسه علومها وفنونها وفقدت الآلة الكلية التي تستخدمها هذه وتلك ، وأقصد اللغة المتناغمة والمكتملة . لقد روض هؤلاء الرجال الأجلاف الذين أنجبهم الشمال كل الآذان على خشونة لسانهم . لقد كانت لغتهم الغليظة التي لا نبر فيها دواية من غير أن تكون رنانة ...

ولقد كان الامبراطور جوليان يقارن كلام الغالين بتقنقة الضفادع . فلقد كان في كل مقاطعهم من الخشونة بقدر ما كان في أصواتهم من الحنين والصَّم . فما كان يوسعهم أكثر من أن يضيفوا على غنائهم ضربا واحدا من الجمال بأن يشدّوا على المصوّتات مخفين بذلك كثافة الصوامت وخشونتها .

ان هذا الغناء الصّاحب الذي اقترن بعدم مطواعة العضو ، قد أجبر هؤلاء القادمين الجدد والشعوب التي استولوا عليها فقلّدتهم ، على أن يتمهلوا في اخراج الأصوات حتّى يسمعوها لغيرهم . ان عسر النطق وتشديد الأصوات ساهما أيضا في افراغ النغم من كل احساس بالوزن والايقاع . ولما كان أعسر ما في النطق هو دائما الانتقال من صوت إلى صوت ، فلم يكن عند الناس أحسن من أن يقفوا عند كلّ صوت بأقصى ما يمكن ، وأن ينفخوا فيه وأن يفجّروه على قدر طاقتهم . وسرعان ما أصبح الغناء مجرد تسلسل بطيء ومملّ من الأصوات الفاترة أو الصّارخة التي لا حلاوة فيها ولا وزن ولا لطف . ولئن قال بعض العلماء بضرورة مراعاة المصوّتات الممدودة والمصوّتات القصيرة في الغناء اللّاتيني ، فإنّه من المؤكّد على الأقلّ أنهم قد غنّوا أبيات الشعر كما لو كانت نثرا وأن الأمر لم يعد متعلّقا عندهم لا بمفاصل البيت الشعري ولا بايقاعه ولا بأيّ نوع من أنواع الغناء الموزون .

وهكذا آل الأمر بالغناء ، بعد أن جرّد من كل نغم ، وبعد أن أصبح منحصرا في قوّة الأصوات وفي مدّتها الزمنية الى أن أوحى بوسائل جعله أكثر رتّة بواسطة التساوقات الصوتية . وصورة ذلك أن جملة من الأصوات ما انفكت ترافق تصادي أصوات غير محدودة المدة ، قد اهتمت صدفة الى بعض التسويات التي أحدثت من الصخب المتزايد ما بدا فاتنا : هكذا ابتدأت ممارسة المسايرة اللحنية والطباق اللحني .

واني لأجهل عدد القرون التي استغرقها جدال الموسيقيين حول مسائل فارغة إنّما حملهم على اثارها مفعول معروف لمبدا مجهول . وان أشدّ القراء صبرا لن يصبر على الهذر الذي يتواصل في كتاب جان دي موريس على امتداد ثمانية فصول أو عشرة ، لكي يذكر هل أن الحماسيّة هي التي يجب أن تكون قرارا في

مسافة الديوان المقسومة الى تساوقين صوتيين ، أم هل هي الرابعة . واننا لنجد مرة أخرى ، وبعد أربعمئة سنة تعديدات لا تقل إضجاراً عن سابقتها ويخصصها بونتامي لكل الدرجات الغليظة التي لا بد أن تحمل السداسية عوضاً عن الخماسية . ولكن التصاوت قد سار شيئاً فشيئاً على الطريق التي رسمها له التحليل الى ان تمّ للمقام الصغير وللتناورات الصوتية أن تقحم فيه التحكم الذي يعجّ به ، والذي لا يمنعنا من رؤيته الا الحكم المسبق (27) .

فلما تم نسيان النغم ، وتمّ تحوّل انتباه الموسيقي كلياً نحو التصاوت ، تركّز كل شيء رويدا رويدا على هذا الشيء الجديد . فأصبح للاجناس وللمقامات وللطبقة ولكل شيء وجوه جديدة : فلقد قامت التسلسلات التصاوتية بتعديل ترددات القطع . ولما استولت هذه الترددات على اسم النغم ، لم يكن بالإمكان أن نتجاهل في هذا النغم الجديد ملامح الأمّ التي ولدته . ولما تمّ لنسقنا الموسيقي أن أصبح هكذا شيئاً فشيئاً نسقاً تصاوياً صرفاً ، فليس من العجب أن يكون نسق كلامنا قد تضرّر منه ، وأن تكون الموسيقي قد فقدت عندنا كل طاقتها .

هكذا أصبح الغناء رويدا رويدا فناً تامّ الانفصال عن الكلمة التي هو منها . وهكذا أنستنا مصاوتات الصوت انعطافات الصوت ، وهكذا أخيراً وجدت الموسيقي نفسها ، لما كانت محصورة في المفعول الحسيّ الصرف لتعاقد الاهتزازات ، محرومة مما خلّفته من الآثار الأدبية عندما كانت صوت الطبيعة مرتين .

الفصل العشرون

في نسبة اللغات إلى الحكومات

ليست هذه التقدّمات اتفاقاً أو تحكماً . بل هي مرتبطة بتقلب أحوال الأشياء . فاللغات تتكون بالطبع من حاجات البشر ، وهي تتبدّل وتتغير بحسب تبدّل الحاجات عينها . ففي الأزمنة القديمة ، عندما كان الاقناع بمثابة القوة العامة ، كانت الفصاحة ضرورية فما فائدتها اليوم وقد حلتّ القوة العامة محل الاقناع ؟ فليس يحتاج المرء الى فنّ أو إلى صورة لكي يقول : ذلك ما يرضيني . فأني الخطب باقية إذن لتلقى على مسامع الجمهور المتجمّع ؟ هل هي المواعظ ؟ وما شأن أولئك الذين يلقونها باقناع الجمهور ، ما دام الجمهور ليس هو الذي يعين من يتمتع بالامتيازات : لقد صارت اللغات الشعبية عندنا عديمة الفائدة تماماً بقدر عدم فائدة الفصاحة . لقد أدركت المجتمعات شكلها النهائي ، فلا يمكن للمرء أن يغيّر فيه شيئاً إلا بالمدفع والرّيالات ، ولما لم يعد لنا ما نقوله للجمهور فيما عدا : « هاتوا المال ! » فاننا نقوله بواسطة خزائن نجعلها في زوايا الأنهج ، أو بواسطة الجنود في البيوت . فلا يجب أن نجتمع أحدا لهذا الغرض . بل

لا بدّ على العكس من ذلك أن نفرّق بين الرعايا ، فتلك أولى قواعد السياسة الحديثة .

ثمة لغات تساعد على الحرية ، وهي اللغات الرثانة والموزونة والمتناغمة التي يمكن أن نميّز ما يقال فيها من بعيد جدّا . أما لغاتنا فقد جعلت لطنين الدواوين . ان دعائنا يعذّبون أنفسهم ، ويتصبّب العرق منهم سيولا في المعابد ، من غير أن نعرف شيئا ممّا قالوا . وانهم ، بعد أن ينهكوا أنفسهم صراخا لمدة ساعة كاملة ، ليخرجون من الأريكة أنصاف موتى . وأكد أن الأمر ما كان يستحق كل هذا العناء .

وعند القدماء ، فقد كان المرء يبلغ صوته بسهولة الى الجمهور في الساحة العامة ، وكان يتكلّم يوما كاملا فلا يتحرّج . لقد كان القوّاد يخطبون في جيوشهم فكانوا يسمعون وما كانوا ينهكون أبدا . ولكنّ المؤرّخين المحدثين الذين أرادوا ادراج تلك الخطب في توارخهم قد استهزئ بهم . فلنتخيّل رجلا يخطب بالفرنسية في جمهور باريس في ساحة فاندوم . فليصرخ ملء شذقيه . سيسمعون أنه يصرخ ، ولكنهم لن يتميّزوا كلمة واحدة . لقد كان هيرودوتس يقرأ تاريخه على جماهير اليونان المجتمعة في الهواء الطلق ، وكان كل شيء يدوى بالتصفيق .

أما اليوم ، فان الاكاديمي الذي يقرأ رسالة في يوم تجمّع عامّ ، لا يكاد يسمع في طرف القاعة . واذا كان دجّالو الساحات أقلّ في فرنسا منهم في ايطاليا ، فليس ذلك لأن الاستماع اليهم في فرنسا أقلّ ممّا هو في ايطاليا ، ولكن ذلك راجع الى أنه لا يستمتع اليهم جيّدا . ويظنّ السيد دالمبار أنه بالامكان أن نعرض الالقاء الفرنسي على الطريقة الايطالية . إذن لا بدّ من عرضه على الأذن ، والا لم نسمع شيئا .

ولكنّي أقول أن كل لغة لا يمكننا أن نبلغ بها صوتنا الى الجمهور المتجمّع ، هي لغة عبودية . وليس يمكن لأي شعب أن يضل حراّ وأن يتكلّم تلك اللغة في نفس الوقت .

سأنهي هذه التأملات السطحية ، التي يمكنها مع ذلك أن تولّد تأملات أعمق منها ، بذكر المقطع الذي أوحى لي بها :

« لعلّه يكون مادّة نظر فلسفي بعيد أن نلاحظ في الواقع وأن نبين بواسطة أمثلة . كيف أن طبع شعب ما وعاداته وهمومه تؤثر في لغته » (28) .

الهوامش

- (1) لم يبق منها (على قيد الحياة) الا ستائة رجل، بلا نساء ولا أطفال .
- (2) لقد بينت في موضع آخر لماذا يؤثر فينا التظاهر بالاحزان اكثر مما تؤثر فينا الأحزان الحقيقية، كممثل من ييكى اثناء عرض مسرحية مأسوية في حين أنه لم يشفق في حياته على اي مسكين. ان اختراع المسرح لمو اختراع رائع ينتفخ منه كبرياؤنا بكل الفضائل التي ليست لنا في الحقيقة أصلا .
- (3) « SALAM » هي ألوان عديدة من أبسط الأشياء ، كبرتقالة أو رداء أو فحم أو غيرها من الأشياء التي يكون لارسالها معنى معروف عند المحييين داخل البلد الذي تتداول فيه هذه اللغة .
- (4) يقال ان في العربية أكثر من ألف كلمة مختلفة للتعبير عن « الحمل » ، وأكثر من مائة للتعبير عن « السيف » ، إلخ .
- (5) يقول شاردان : « ان بعض الناس يندهشون من أنه يمكن بشكليين اثنين ان نعمل كل هذه الحروف . ولكني فيما يخصني لا ارى سببا لمثل هذا الاندهاش القوي ، بما أن حروف أبجديتنا التي عددها ثلاثة وعشرون حرفا ، ليست في الحقيقة مركبة الا من خططين ، المستقيم والذائري . ويعني ذلك انه يمكننا ان نعمل كل الحروف التي تتكون منها كلماتنا بواسطة حرف « C » وحرف « I »
- (6) يبدو هذا الحرف شديد الجمال وليس فيه غموض أو همجية ، لكن الحروف قد طليت ذهبيا ، إذ مازال يظهر في الكثير منها ، وخاصة في الفليضة ، أثر الذهب . وأكد أن عدم اتیان الهواء على ذلك التذهيب طيلة كل هذه القرون هو أمر عجيب لا يمكن تصوره . وعلى كل فلا عجب في أن عجز كل علماء العالم على فهم هذه الكتابة فهي لا تشبه أية واحدة مما وقع بين أيدينا من الكتابات ، في

حين أن كل الكتابات المعروفة الى اليوم تتشابه الى حد ما ، باستثناء الكتابة الصينية وتبدو كأنها راجعة الى نفس الأصل . ولعل الاغرب في ذلك هو أن المجوس ، الذين تبقوا من الفرس القدامى ، واحتفظوا بديانتهم ، ليسوا بأعرف منا بهذه الأحرف ، وليس ذلك فقط بل ان حروفهم ليست بأشبه بتلك الحروف من حروفا . فينتج عن ذلك أن هذه الحروف هي اما من رموز القبلانية ، وهو غير محتمل فهذا الحرف هو الحرف المشترك والطبيعي لهذه الآثار في كل المواضع ، في حين أن رمز القبلانية ليس ثمة غيره بعين ما له من النقش . أو أنها من القدم بحيث لا نكاد نجرو على قوله « وفعلا فلعل ما يجعلنا شاردان نفترضه من هذا المقطع هو أن هذه الحروف قد كانت منسية بعد في زمن قورش والمجوس ، وأن ضالة معرفتهم بها إذ ذاك كضالة معرفتنا بها الآن .

(7) أعتبر القرطاجيين فينقيين ، بما أنهم قد كانوا مستعمرة من مستعمرات صور .

(8) فوزانياس . لقد كتب اللاتينيون في البداية كذلك . ومن ثم جاءت كلمة « Versus » حسب ماريوس فيكتورينوس .

(9) *Vocales quas græce septem, Romulus sex, usus posterior quinque commemorat, y velut græca rejecta. Mart. Capel I. III.*

(10) ولعل الوسيلة التي تكون أحسنها والتي لا يكون فيها هذا العيب ، هي التقيط لو تركوه على حال أقل سوعا مما هو عليه . فلماذا ليس لنا مثلا نقطة النداء ، في حين أن نقطة الاستفهام التي لدينا أقل لزوما بكثير . فان مجرد التركيب ينبؤنا بما اذا كان ثمة سؤال أم لا ، وذلك على الأقل في لغتنا . فعبارة « هل تأتي ؟ » وعبارة « أنت تأتي » ليستا نفس الشيء . ولكن كيف يمكن لنا أن نميز كتابيا بين انسان نسميه وانسان ناديه . فهذا التباس قد كانت ترفعه نقطة النداء . وعين هذا الالتباس نجده في السخرية ، عندما لا نشعرنا اللهجة بذلك .

(11) يزعم بعض العلماء ، خلافا للرأي العام وخلافا للدليل المستمد من كل المخطوطات القديمة ، أن اليونانيين قد عرفوا في الكتابة تلك العلامات التي نسميها نبرات ، وأنهم قد مارسوها . ويؤسسون هذا الرأي على مقطعين سأورد ههما كما هما معا ، حتى يتمكن القارئ من الحكم على معناهما الحقيقي .
فها هو المقطع الأول ، وهو لشيشرون ، من كتابه في الخطيب الكتاب III ، رقم 44 :

Hanc diligentiam subsequitur modus etiam et forma verborum, quod jam vercor ne huic Catulo vidatur esse puerile. Versus enim veteres illi in hac soluta oratione propemodum, hoc est, numeros quosdam, nobis esse adhibendos putaverunt. Interspirationis enim non defatigationis nostræ, neque libraiurum notis sed verborum est sententiarum modo, interpunctas clausulas in orationibus esse voluerunt : idque princeps Isocrates instituisse fertur, ut inconditam antiquorum dicendi consuetudinem, delectationis atque aurium causa (quemadmodum scribit dis cipulus ejus Naucrates), numeris adstringeret .

Namque hæc duo, musici, qui erant quondam iidempoiætæ, machinati ad voluptatem sunt versum, atque cantum, ut et verborum numero, et vocum modo,

delectatione vincerent aurium satietatem. Hæc igitur duo, vocis dico moderationem, et verborum conclusionem quoad vrationis severitas pati possit, a poetica ad eloquentiam traducenda duxerunt

وما هو المقطع الثاني ، وهو لا يزيدور ، من مؤلفه الأصول الكتاب I ، الفصل 20 :

Præterea quædam sententiarum notæ apud celeberrimos auctores fuerunt, quasque antiqui ad distinctionem scripturarum carminibus et historis apposuerunt. Nota est figura propria in litteræ modum posita ad demonstrandum unamquamque verbi sententiarumque ac versuum rationem. Notæ autem versibus appenuntur numero XXVI, quæ sunt nominibus infra scriptis, etc.

وفيما يخصني فاني أرى في ذلك ان الناسخين المهرة قد كانوا يمارسون زمن شيشرون فصل الكلمات ، وبعض العلامات التي تضاهي تقفيطنا . كما أرى فيه ايضا اختراع العدد وتفخيم النثر ، المنسوب الى ايزقراطس . ولكني لا أرى فيه ابدا العلامات المكتوبة ، والنبرات : وحتى ان رأيته ، فانه لا يمكن ان نستنتج من ذلك الا امرا لا أناقش فيه ، وهو يندرج بغير عناء ضمن مبادي ، وهذا الأمر هو أن الرومان عندما شرعوا في دراسة اليونانية ، فان النساخ قد عمدوا الى اختراع علامات النبرات ، والتشديد والابقاع لكي يبينوا لهم وجه نطقها . ولا ينتج عن ذلك أبدا أن هذه العلامات قد كانت مستعملة لدى اليونان الذين لم تكن بهم أية حاجة اليها .

(12) السيد دوكلو ، ملاحظات حول النحو العام والمعقول ص : 30

(13) وقد يظن ان الايطاليين يميزون بتلك النبرة عنها مثلا e الفعل من e أداة الربط . ولكن الاول يتميز في الأذن بصوت أقوى وأشد ، مما يجعل النبرة التي تطبعه نبرة صوتية . وهذه ملاحظة ما كان لكتاب بونماتي حق في أن لا يبيدها .

(14) أطلق عبارة « الأزمنة الأولى » على أزمنة تفرق الناس ، بقطع النظر عن العصر البشري الذي نضبط فيه فترة ذلك التفرق .

(15) ليس أصل اللغات الحقيقية أصلا متزليا . فلا يمكن ان تتأسس هذه اللغات الا على تواطؤ أعم وأدوم .

ان متوحشي امريكا يكادون لا يتكلمون الا خارج بيوتهم . فكل واحد منهم يلزم الصمت في كوخه ، ويتحدث الى عائلته بالاشارة . وهذه الاشارات قليلة التردد لأن المتوحش اقل حيرة واقل تلهفا من الأوروبي ، ولانه ليس له مثل الأوروبي من الحاجات ، وانه يعمل على تحقيقها بنفسه .

(16) ان مهنة الصيد ليست مواتية أصلا للسكان ، وان هذه الملاحظة التي أبدت عندما سكن القراصنة

جزرسان دومانغ . والسلحفاة ، قد دعمتها حالة امريكا الشمالية ، فاننا لم نر أبدا ان مؤسس امة كبيرة قد كان صيادا بصفة قارة . بل كانوا كلهم فلاحين أو رعاة . فلا بد اذن ان لا ننظر الى الصيد كمورد عيش ، بقدر ما ننظر اليه كمكمل ثانوي للحالة الرعوية .

(17) ان الانسان كسول بالطبع الى حد لا يتصور . لكأنه لا يعيش الا للنوم والحمول والجمود ، ولا يكاد

يخطر بباله أن يحرك نفسه لكي لا يموت جوعا . وليس ثمة ما يستديم حب المتوحشين لحائتهم تلك أكثر من حلاوة ذلك الحمول . فان الاهواء التي تجعل الانسان حائرا ، حذرا وناشطا ، لا تتولد الا في

المجتمع . فاول ما يهواه الانسان بعد بقاءه انما هو أن لا يعمل شيئا . واذا ما تأملنا جيدا ، فاننا نجد الامر كذلك حتى عندنا . فكل من يعمل انما يتنهي الحصول على الراحة . فالكسل هنا ايضا هو الذي يجعلنا مجتهدين .

(18) ان عبارات « الأصيل » هذه لا تعني الا ان أول من يسكن البلاد قد كانوا متوحشين ، لا مجتمع لهم ولا قوانين ولا تقاليد وانهم قد عمروا الأرض قبل ان يتكلموا .

(19) ان النار تمنح الحيوانات كما تمنح الانسان سعادة كبرى ، عندما تكون قد تعودت رؤيتها وقد تذوقت حرارتها الحلوة . بل ولعل حاجتها اليها لا تكون في بعض الأحيان باقل من حاجتنا نحن اليها ، على الأقل لتدفئة صغارها .

ولكننا لم نسمع قط من يقول ان حيوانا منزليا ما ، بريا كان او اهليا ، قد اكتسب من الحيلة ما يمكنه من ان يصنع نارا ولو بتقليدنا . ها هي اذن تلك الكائنات المتعلقة التي تكون امام الانسان مجتمعا هاربا ، على ما يقولون ، والتي لم يرتفع ذكاؤها — مع ذلك — الى ان تستخرج شرارات من النار من حصاة ، وان تحتفظ بها أو أن تحتفظ على الأقل ببعض النيران المتروكة . ليت شعري ، ان الفلاسفة ليسخرونا منا بكل وضوح . واننا لنرى أنهم بما يكتبون يعتبروننا من البهائم .

(20) انظر مثال هذه وتلك في الفصل XXI من سفر التكوين بين ابراهيم وابي مالك ، فيما يتعلق بالبشر .

(21) يزعم بعضهم أن مختلف انواع الحيوان تظل من تلقاء نفسها في تأرجح دائم يمثل توازنها ، وذلك بموجب ضرب من الفعل ورد الفعل الطبيعيين . فعندما يكون النوع المفترس قد تكاثر بما يتجاوز المطلوب ، على حساب النوع المفترس ، إذ ذاك فان النوع الأول مضطر الى التناقص ، لانه لم يجد قوته ، فيترك بذلك للنوع الثاني من الوقت ما يكفي للتوالد من جديد ، ويستمر ذلك الى ان يتوفر من هذا النوع قوت كثير للنوع الآخر ، فيتضاءل النوع المفترس من جديد في حين يتكاثر النوع المفترس مرة اخرى . ولكن مثل هذا التأرجح لا يبدو محتملا ، لانه لا بد اذ ذاك أن يوجد في هذا النسق وقت يتزايد فيه النوع الذي يلعب دور الفريسة ، ويتناقص فيه النوع الذي يقتات منه . وهو لم يبدو مناقضا لكل معقول .

(22) لقد كان ضروريا ان يتزوج الرجال الأول من اخواتهم . لقد تمكنت هذه العادة من أن تستمر داخل بساطه نطاق العادات الأولى ، من دون حرج ، وذلك طالما بقيت العائلات منعزلة وحتى بعد تجمع أقدم الشعوب ، ولكن القانون الذي أطاح بها لا يقل قداسة عنها لانه من صنع الانسان . وأولئك الذين لا يعتبرونه الا من حيث ما يقيمه من الروابط بين العائلات ، لا يرون منه أهم الجوانب . فلو توقّف مثل هذا القانون المقدس عن مخاطبة القلب وعن ضبط الحواس مع ما يفرضه التعامل المنزلي بين الجنسين من التعود ، لما بقي بين الناس نزاهة ، ولعلجت اشنع العادات بالقضاء على الجنس البشري .

(23) اللغة التركية لغة شمالية .

(24) سترابون ، الجغرافيا ، الكتاب I .

(25) Archytas atque Aristoxenes etiam subiectam grammaticen musicæ putaverunt, et eosdem utriusque rei præceptores fuisse... Tum Eupolis, apud quem Prodamus et

musicen et litteras docet. Et Maricas, qui est Ilyperbolus, nihil se ex musicis scire nisi litteras confitetur. Quintil lib I. cap X.

- (26) ما من شك في انه لا بد لنا طرح قسط المبالغة اليونانية . ولكن المبالغة في هذا الطرح الى حد طمس كل الفروق هي مبالغة في الثقة بالحكم المسبق الحديث . يقول القس ترأسون : « عندما بلغت موسيقى اليونان ، أيام أمفيون وأورفي ، ما بلغت اليوم في أبعد المدن عن العاصمة ، إذ ذاك كانت توقف تدفق الأنهار ، وينحني لها السنديان وتزلزل منها الصخور . وقد بلغت اليوم قمة عالية جدا من الكمال ، اذ يحيا الناس كثيرا ، ويتعمقون في فهم مظاهر جمالها ، ولكنها لم تعد تحرك شيئا في مكانه . ذلك ما كان أيضا من أمر شعر ميروس ، وهو الشاعر الذي ولد في تلك الأزمان التي مازالت تحمل اثار طفولة الفكر البشري اذا ما قارناها بالازمنة التي تلتها . لقد سكر الناس بأبياته الشعرية ، ولكنهم يكتفون اليوم بتذوق أبيات الشعراء المجيدين وبالحكم عليها » . لا ينكر أحد أن القس ترأسون قد كان على شيء من الحكمة أحيانا ولكنه من المؤكد انه لم يظهر من ذلك شيئا في هذا المقطع .
- (27) يؤسس السيد رامو ، بارجاعه كل التصاوت الى هذا المبدأ البسيط الذي هو تصويت الأوتار في المنازل النائمة التي تنقسم اليها ، يؤسس المقام الصغير وتنافر الاصوات على تجربته المزعومة التي تبين ان الوتر المصوت يهتز عند الحركة أوتارا أخرى أطول منه وذلك الى حد درجته الكبرى الثانية عشرة والسابعة عشرة قرارا . وحسب رأيه فان هذه الأوتار تهتز على كامل طولها ولكنها لا تصوت . هي ذي ، فيما يبدو لي ، فيزياء فريدة ، لكننا نقول ان الشمس تلمع ولكنها لا ترى شيئا .
- ان هذه الأوتار ، لما كانت لا ترجع الصوت الدرجة الاحد ، لانها تنقسم وتهتز وتصوت عند تصاديبها ، تدغم صوت هذه الدرجة بصوتها هي فتبدو وكأنها لا ترجع اي صوت . ان الخطأ يتمثل في الظن باننا نرى هذه الأوتار تهتز على كامل طولها ، وفي عدم ملاحظة العقد ملاحظة جيدة ، ان وترين مصوتين مكونين لمسافة تصاوتية ما يمكنهما ان تسمعا صوتهما الاساسي قرارا ، حتى اذا ما لم يكن ثمة وتر ثالث . وهذه هي تجربة تارنيني المعروفة والمؤكد . ولكن الوتر اذا كان بمفرده ليس له من صوت أساسي غير صوته ، وهو لا يجعل الأوتار الاخرى تصوت أو تهتز ، بل تصاديه ومنازله . ولما لم يكن للصوت من سبب غير اهتزازات الجسم المصوت ، ولما كان السبب كلما مارس سببته بحرية ، تلاه ، دائما المفعول ، فان فصل الاهتزازات عن التصويت هو عبث .
- (28) ملاحظات حول النحو العام والمعقول ، بقلم السيد دوكلو ، ص : 2 .

ملحق

بأهم المصطلحات مشفوعة بما ارتأيناه لها من الترجمة

المصطلح بالفرنسية

الترجمة المقترحة

A

Accent

النبرة

Accord

التسوية

Articulation

التمفصل — التقطيع

C

Chant

الغناء

Clavier

المفتاح

Comma

الفاصلة

Consonnance

التساوق الصوتي

Consonne

الصامت ، الحرف الصامت

Contrepoint

الطباق اللحني

D

Diagramme	الرسم البياني
Discant	المسايرة اللحنية
Dissonance	التنافر الصوتي

G

Genre enharmonique	اللون التجانسي
Glotte	الزردمة — الحنجرة
Gosier	الحنجرة

H

Harmonie	التصاوت
----------	---------

I

Inflexion	الانعطاف
Intervalle	المسافة

L

Langue	اللغة — الكلام — اللسان
--------	-------------------------

M

Marche dialonique	الدرجة الابعادية
Marche fondamentale	الدرجة الاساسية
Mélodie	النغم
Mélodie harmonique	النغم التصاوتي
Mélodie orale	النغم الكلامي
Métaphore	المجاز
Mode	المقام
Mode majeur	المقام الكبير
Mode mineur	المقام الصغير
Modification	التغاير

N	
Notation	الترقيم
O	
Octave	الدّيوان
Onomatopée	الحاكية الصوتية
P	
Palais	الحنك
Passions	الأهواء — العواطف
Prosodie	العروض
R	
Rythme	الايقاع
S	
Son	الصوت
Sonorité	الرّة — التصويت
Système	النسق
T	
Tétracorde	الرباعية
Ton mineur	البعد الصغير
V	
Voyelle brève	التصويت (المصوّت) القصير
Voyelle longue	التصويت (المصوّت) الممدود

المحتوى

7	تقديم بقلم د . عبد السلام المسدي
15	جان جاك روسو : حياته — أعماله
21	تصدير المترجم
27	محاولة في أصل اللغات
27	الفصل الأول : في مختلف وسائل تبليغ أفكارنا
33	الفصل الثاني : في أن أول اختراع للكلام ليس ناتجا عن الحاجات بل عن الاهواء
35	الفصل الثالث : لا بد أن اللغة الأولى قد كانت مجازية
37	الفصل الرابع : في الخصائص المميزة للغة الأولى ، وفي التغيرات التي لا بد أنها مرت بها
	: في الكتابة
46	الفصل الخامس : هل من المحتمل أن هوميروس قد كان يعرف الكتابة
48	الفصل السادس : في العروض الحديث
52	الفصل السابع : اختلاف أصل اللغات عموما ومحليا
54	الفصل الثامن : تكون اللغات الجنوبية
67	الفصل التاسع : تكون لغات الشمال
70	الفصل العاشر : تأملات في هذه الاختلافات
72	الفصل الحادي عشر : أصل الموسيقى ونسبها
75	الفصل الثاني عشر : في النغم
78	الفصل الثالث عشر : في التصاوت

81	الفصل الخامس عشر : في أن أحر احساساتنا غالبا ما تؤثر فينا بواسطة انطباعات أدبية
84	الفصل السادس عشر : التناسب الكاذب بين الألوان والأصوات.....
88	الفصل السابع عشر : في خطأ من أخطاء الموسيقيين مضر بفنهم.....
89	الفصل الثامن عشر : في أنه لم يكن لنسق اليونانيين الموسيقي أي نسبة إلى نسقنا
92	الفصل التاسع عشر : في كيف انحطت الموسيقى.....
96	الفصل العشرون : في نسبة اللغات إلى الحكومات.....
99	الهوامش.....